"لم يتخيل أحد أن هذا هو المشهد الأول من المسرحية التي قررت إخراجها "

أن تأتي متأخرًا

ديميتري فيرهولست

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

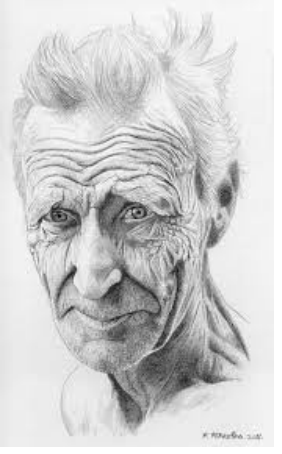

أن تأتي متأخرًا

أن تأتي متأخرًا

تأليف: ديميتري فيرهولست

ترجمة: محمد عثمان خليفة
تحرير: هدى فضل
مراجعة لُغوية: فاطمة محمود

الطبعة الأولى:نوفمبر 2018
رقم الإيداع: 2018/15888
الترقيم الدولي:9789773194352

الغلاف: عصام أمين

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

De laatkomer © 2013 by Dimitri Verhulst
Originally published by Uitgeverij Atlas Contact, Amsterdam

“This book was published with the support of Flanders Literature (flandersliterature.be).”

ديميتري فيرهولست

أن تأتي متأخرًا

رواية من بلجيكا

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

فيرهولست، ديميتري

أن تأتي متأخرًا: رواية من بلجيكا/ تأليف ديمتري فيرهولست.

ترجمة محمد عثمان خليفة- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص؛ سم.

تدمك 9789773194352

1- القصص البلجيكية

أ- خليفة، محمد عثمان (مترجم)

ب- العنوان 839.313

(1)

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان".

(نكتة لا أكثر).

على الرغم من أنني أتعمد فعل ذلك تمامًا، فإنني أمقت تبرزي في الفراش ليلة بعد ليلة.. أمَّا إذلال نفسي على هذا النحـو فهـو العاقبـة الأصعب لمنحى جنـوني اتخذتـه في أواخـر حيـاتي.. عـلى أن مـن شـأن إمساكي لبرازي وأنا نائم أن يثير شكوك من يعتنون بي، ولو كنت عازمًا على الاستمرار في لعبة العجوز الخرفان هذه، فلا سبيل إلى ذلك سوى أن أزيد الفراش "طينًا" كل ليلة، ولأنني أمثِّل، وأعرف أنني أمثِّـل، فـلا بدَّ لك أن تعرف أنني بعيد كل البعد عن الخرَف، وهذا على عكس ما يظن كل من بالمكان.

أشعر بالحكة تأكل مؤخرتي بسبب توغـل بلـل البـول إليهـا، وهـو إحساس غير مريح على الإطلاق.. إحساس لا ينفع معه كل مـا تـضعه "عائـشة" و"كـورا" مـن كريمـات ومـراهم بـين ردفيَّ، وهـي منتجـات تأخـذانها مـن رجـل مبيعـات الـشركة لمجـرد الـتخلص مـن سـماجته وحسب، ولكنني أخبرتك للتو أنني غير عازم على الخروج عن الـنص..

تخيَّل.. تخيَّل فقط.. ما يمكن أن يحدث لو أنهما اكتشفتا فجأة أنني كنت أمثل عليهما طيلة الأشهر الماضية دور العجوز العبيط! وأنني تعمدت لأسابيع وأسابيع أن أهذر بعبارات لا معنى لها، وأن أرتجف وأهتز بلا توقف، وأنا قابع في كرسي متحرك بلا حول ولا قوة، بينما أنا في الحقيقة قادر على التحدث بكل بلاغة في أعقد القضايا السياسية، مثلًا.. ربما شعرت وزارة الصحة بالإهانة، ورفعت عليَّ قضية تعويض ورد شرف، وربما رغب طاقم الممرضات في مستشفى "وينترلايت" للمسنين في الانتقام مني.. وساعتها سوف تتحول كل مشاعر الشفقة والرحمة التي يبديها أولادي تجاهي إلى إحساس بالعار.. يومها، لن تتورع زوجتي (العاهرة)، بفرض أنها ستعيش من بعدي (وهو ما سيحدث)، عن نثر كميات هائلة من طعام الطيور فوق قبري حتى يتبرز الحمام على شاهد القبر، كل يوم.

هكذا، كما ترى، لا بديل أمامي.. أحرقت كل الجسور مـن خلفـي، فلا تراجع.. أنا عجوز خرف اليوم، وكنت بـالأمس، وسـأبقى كـذلك في الغد، وأنا أعرف ما أقحمت نفسي فيه، ولكن هذا لا يغير من حقيقـة أن البراز والبول هما أصعب جزء في الدور الـذي أتقمـصه لـكي أتقـن الدور وأقنع الجميع به.. كم ليلة أمـضيتها راقـدًا والـدموع في عينـيّ، بينما أتبرز عمدًا في ملابسي.. لم يمكن لأحد أن يتهمني بأنني بلا إرادة في الأشهر القليلة التي مضت، ولكن رقـودي وسـط كـل تلـك القـذارة حتى الصباح دفعني إلى التساؤل حول جـدوى كـل ذلـك.. تلـك هـي اللحظات الواعية النادرة التي أسأل نفسي فيهـا: "أيـستحق الأمـر كـل هذا؟ أصدقت نفسك؟ ألا تبالغ في تمثيل الدور؟".

لذلك، تنفست الصعداء.. عندما ظهر الحل أمامي.

ومع أن لحفنة الأقراص التي تدسها الممرضات في أفواهنا جبرًا كـل يوم دور في تلك الحالة، إلا إنني في الليلـة الماضـية نمـت مثـل الميـت،

ونتج عن ذلك أن الممرضات لم يجدن في الصباح كمًا محترمًا من البراز في انتظارهن.

ومع هذا..

هرعت "كورا" ذات الجسد المثير إلى غرفتي هذا الصباح، في عجلة من أمرها كما هي عادتها.. (حتى إنني لا أصدق كيف تمتلك هذا الجسد وهي بهذه العصبية وسرعة الحركة)، وبادرت بفتح الستائر وهي تصيح:

- صباح الخير.. حبّوبي! يوم جديد سعيد!

عندئذ انتبهت إلى أمر ما تحتي.. كم كانت دهشتي عندما وجدتُ أنني تبرزت وأنا نائم بالفعل! من دون قصد مني! مرحى! لقد تولى جهازي الهضمي المهمة بدلًا مني.

- حبّوبي.. ألم تسمعني؟ حان وقت الاستيقاظ!

صحت فيها متلهفًا:

- ماما.. ماما.. الأبقار بحاجة إلى العلف!

ضحكت "كورا"، وضحكتها جميلة.

- تناولت الأبقار طعامها بالفعل.. حبّوبي.. ما رأيـك في أن نـذهب إلى حظيرة الأبقار فيما بعد ونرى بأنفسنا؟ بعد الإفطار؟ ونأخذ فتات الخبـز لنطعم الحـمام في الحديقـة، فهـو في انتظـارك مـن الآن! ولكـن عـليَّ في البداية أن أجهزك، حتى تدوخ بنات البوفيه من فرط وسامتك وشياكتك.

قالتها، وهي ترفع ساقيَّ لأعلى، قبـل أن تنظـف مـؤخرتي بمنـشفة بللتها بماء دافئ..

"Impropria est ut salutaret aliquis qui est cacas"

صحت باللاتينية مثل طفل.. ربما كانـت العبـارة مرتبـة إلى حـد لا يليق بمن يعاني الخرف، ولكن يعجبنـي أن أرددهـا في كـل مـرة مثـل طفل متمرد. وهي جملة لـ"إيراسموس"، ومعناها: "ليس مـن اللائـق

أن تحيي شخصًا قد تبرَّز للتو".

بعد قليل، كنت أرقد عاريًا ونظيفًا، تفوح من جسدي رائحة الصابون المطهر، في فراش نظيف بلا براز، بينما كانت "كورا" تتأمل خزانة ملابسي، وتنظر نحوي بين لحظة وأخرى، كأنما تختار الأنسب لي، وهي تصيح بالاقتراحات.. تلك من عيوب دخول دار المسنين قبل الأوان.. ذلك الصياح المروع الذي لا ينتهي.. إنه النساء يفترضن أن العجائز ضعاف السمع أو أنهم لا يسمعون مثل الأصنام، وهكذا اعتادت أحبالهن الصوتية تلك الدرجة "السوبرانو".. ومع الوقت تصير هذه عادة فيهن، ويتحدثن بهذه الطريقة الصاخبة مع كل الزملاء والعاملين، بل مع أزواجهن وأطفالهن أيضًا.

هكذا، استمرت "كورا" في أداء دورها الأوبرالي:

- سوف نرتدي اليوم أفضل بدلة لدينا، حبّوبي! أتدري ما السبب؟

- ما.. ذا.. قلتِ؟

- سوف ترتدي أجمل بدلة لديك اليوم!

- أوه..

- أتعرف السبب؟

- أوه.. أوه..

- السبب.. حبّوبي؟

- أيوه..

- إنه عيد ميلادك! وكم صار عمرنا اليوم؟ أتعرف؟

أتضايق عندما تتحدث إليَّ بصيغة الجمع العجيبة هذه.. هل هذا أمر تعلمته خلال تدريبها على أداء وظيفتها؟ إن كان ذلك، فإني في غاية الفضول أن أعرف الفلسفة وراء اتباع هذه القاعدة.

- أربعة وسبعون.. حبّوبي! أليس بالعمر الرائع الكبير!

حقيقة أنني في الرابعة والسبعين من عمري تجعلني بمثابة الطفل الصغير مقارنة ببقية ساكني دار "وينترلايت" للمسنين.. ينظرون إلى كل من هو أصغر من سن الثمانين على أنه جاء إلى هنا قبل الأوان، لسوء حظه؛ فهو شخص أنعمت عليه الطبيعة بكم محترم من الخلايا الرمادية في دماغه، وقادر على سبر أغوار أعقد الألغاز، أو تخزين جميع أنواع المعلومات في ثنايا عقله، ولكن لم يخطر بباله أن يعرف التاريخ الحقيقي لانتهاء صلاحيته.

عندك "إيتيان ذيجس"، مثلًا.. ساكن الغرفة 18.. هو أيضًا أصغر من خمسة وسبعين.. عبقري طول عمره، وكان أستاذ بيولوجيا، ورائدًا في أبحاث المضادات الحيوية، ولكنه اليوم مخبول مثل قرد البابون.. يرتدي ملابسه بالمقلوب، ولا تفارقه كراسة لصق فيها صورًا من مجلة لمحبي القطط! بؤس، بينما زوجته، الأضخم منه ألف مرة ولكنها تافهة العقل (أين رأيت مثلها من قبل؟) عثرت على أحمق

آخر وعاشت معه، جـزَّار عـلى المعـاش.. تـصطحبه معهـا عنـدما تـأتي لتزور زوجها السابق، ولكننا نشكر الظروف التي جعلـت البروفيـسور "ذيجس" لا يعي أيًّا من ذلك.

ولكن البروفيسور ليس أكثرنا جنونًا في "وينترلايت"- أبـدًا - فهـذا شرف لا يستحقه عن جدارة سوى "فالتر دي بـوت"؛ الـذي تجـاوز عمـره المئـة، وأصابه الصلع، وأصبح جلدًا على عظم، وانتشرت البقع الداكنة على جلده، وهو جالسٌ دائمًا بـلا حركـة في كرسـيه المتحـرك، ويرتـدي تـستره بيجامـة عسكرية قديمة.. (كم أود أن أدعـوه باسـم شـهرة مـن ابتكـاري.. "القائـد ألزهايمر"، ولكن لا معنى لأي اسم شهرة في مكان لا يتحدث فيه أحد مـع أحد).. لا يحترم "فالتر دي بوت" أحدًا سوى مدير الدار، ويصر على تحيتـه دائمًا بذراع ممدودة على الطريقة النازية العسكرية، ولو كان طقم الأسنان في فمه، لصاح بأعلى صوته "هايل هتلر!".

لا أجد أي تفاخر في أن يضطر المرء لمعايشة سنوات شبابه من جديد.

وإذا لم يُعتبر شخص يهذي في عقده السبعين حالة بائسة، فذلك لأنها كانت بالأساس حالة متوقعة.. وأنت السبب فيما وصلت إليه؛ لم تأكل كميات كافية من الأسماك أيام كانت الفرصة أمامك، وكذلك المكسرات.. وكنت تفضل مسلسلات التلفزيون على الروايات ذات الحبكة البوليسية، وشربت الكثير من الخمر حتى تحوَّل مخك إلى برطمان مخلل، وكنت تهمل صفحة الكلمات المتقاطعة في الصحف، بل وتهمل قراءة الصحف الأجنبية ولو من باب الفضول لتتعلم كلمة أو كلمتين أجنبيتين، وكنت الشخص الذي يتجنب أي نشاط ذهني تمامًا، ولم تكن لك أي طاقة لمواكبة التقدم التكنولوجي.. فلا تلُم إلا نفسك على ما أنت فيه من خرف! هكذا يقول لك كل من هم حولك.. من دون أن ينطقوا به.

وهكذا تنظر زوجتي إليَّ في زياراتها.. التي أخذت تقل وتقل.. لحسن حظي.

أول عيد ميلاد لي في الدار، ومزاجي "عال العال".. على سبيل تخفيض النفقات وتقليل التوتر، قررت الدار أن تقيم حفلَ عيد ميلاد مشتركًا لكل من كانت تواريخ ميلادهم متقاربة.. وهي طريقة أثبتت نجاحها في حفلتين أو ثلاث حفلات من قبل، وخاصة عندما يحتفل واحد أو واحدة من مسني الدار بإتمامه المئة عام، فهذا يعني بالتأكيد وجود صحفي من الجريدة المحلية لتغطية الحدث والتقاط الصور النادرة.

كما سيحضر العجوز المسئول عن سجل المواليد والوفيات والزيجات في المنطقة؛ ليلقي كلمة قصيرة (هي الكلمة نفسها.. أمام المخابيل أنفسهم الذين لا يلقي لهم بالًا)، قبل أن يهدي باقة زهور لصاحبنا الذي يحتفل ببداية قرنه الثاني، بالنيابة عن العمدة وكبار المسؤولين، متمنيًا له عمرًا مديدًا وسعيدًا، ثم يدس في فمه قطعة الجاتوه، ويصافح كل مسؤولي الدار على أمل أن يتذكروه في

الانتخابات المقبلة، ثم ينصرف.. وهذا العجوز لا يهتم بمن لا يزالون تحت حد المائة (هو من الحزب المسيحي الديمقراطي، ولكنني لا أعتقد أن هذه المعلومة تفرق معك)، أما من هم أقل من خمسة وتسعين فلم يدخلوا حيز تفكيره بعد.

واليوم، أشكر الرب أن حفل أعياد الميلاد لن يشهد أي محتفل ممن وصل عداد عمرهم إلى الأرقام الثلاثة، وبالتالي سيكون لصاحبنا شؤون أخرى يهتم بها بعيدًا عنَّا، وقد تظن أنني أتجاوز في حق الرجل.. ولكن عليك أن ترى الطريقة التي ينظر بها إليَّ، إنني مقتنع بأنه الوحيد الذي يدرك اللعبة الصغيرة التي ألعبها.. الوحيد الذي يشعر أنني بعقلي كاملًا، وأنني أخدع الكل، ولكنه مجرد هاجس، ليس إلا.. هاجس غامض.

انتبهت على صيحة جديدة من فم "كورا":

- واو.. حبّوبي.. في كامل أناقتك من جديد.. هيَّا بنا إلى قاعة الطعام!

اقترحت عليَّ وهي تتحرك بي، وأنا قابع فوق الكرسي المتحرك:

- لماذا لا نجعل الأولاد الذين نحتفل بهم اليوم يجلسون إلى جـوار بعضهم إلى مائدة الإفطار؟

أوقفت الكرسي في البقعة نفسها التي كانـت تخـص "روزا روزنـدال"، حتى وقت قريب.. عند الإفطـار، كانـت "روزا" تـدس شريحـة الخبـز في فمها، مثل ملاكم يعيد وضع واقي الأسنان في مكانه..

هأنذا في مكان "روزا روزندال"، إلى جوار "القائد ألزهايمر".

كان القائد قد شن بالفعل هجومه المعتـاد عـلى الساندويتـشات البيضاء عديمة الطعم.. يأكلها بعد أن يغمسها في مج النسكافيه أولًا.

أحدق في عينيه اللامعتين مثل قطعتي بلور، وأقول:

- ما رأيك في الزبدة؟ حلوة، صح؟ صنعوها من دهن اليهود! لذيذة!

أعرف أن عبارة كهذه كفيلة بأن تنير مصباح المجد الغابر في ذاكرة " ألزهايمر ".. وينشط عقله الفارغ من أي أفكار ولو قليلًا؛ فيتمتم مثل ببغاء:

- سوف تكون هناك فرص عمل كثيرة.. وطرق أكبر، وسكك حديد أفضل!

ثم يطعن بالسكين عميقًا في قطعة الزبدة، قبل أن يمرر الطبقة السميكة فوق شريحة خبز جديدة، ولكن ملامح الانزعاج سرعان ما ترتسم على وجهه وهو يحاول عبثًا تخليص الزبدة من نصل السكين فوق شريحة الخبز.. فأهمس له:

- أنت لا تعرف من أنا، أليس كذلك؟

الآن زاد انزعاجه.. انزعاج من يعاني الخرف وهو يكابد، بينما يفتش في ذاكرته البور عن شيء لم يعد بالتأكيد موجودًا فيها.. ينظر

إليَّ النظرة نفسها التي قضيت الساعات أتدرب عليها، حتى صرتُ أستاذًا في تقمصها.

- لم تعد تذكرني؟ انظر إليَّ أكثر! كان ذلك في آخر شتاء خلال الحرب.. ذلك الشتاء البارد، لقد قتلتني برصاصة وألقيت بجسدي فوق كومة من الجثث! كلا؟ لم تتعرف على ملامحي؟ حسنًا.. أنا أتفهم ذلك.. أنت قتلت كثيرين، ولا يمكن أن تتذكر وجوه كل من قتلتهم، ولكنني واحد منهم، ولقد عدت.. انبعثت من جديد، من قلب الأفران؛ لأكون لعنة سنواتك الأخيرة؛ لأدس خرطوم مياه في مؤخرتك الخربة، إلى أن ينتفخ جسدك العفن بمياه نظيفة فلا يكون لها من مخرج إلا منخارك.

يعاني قطاع الرعاية الصحية من فقر الميزانية، وقلة عدد العاملين فيه؛ لذلك يستغرق الأمر وقتًا قبل أن يأتي أحدهم ليهتم بصيحات

وشكاوى "القائد ألزهايمر" بكلمات مطمئنة وأدوية مهدئة:

- "فالتر".. لا داعي لأن تصرخ وتزمجر لمجرد أنك أوقعت قطعة زبدة على الأرض.. ولا يهمك.. عزيزي، ولكـن في المـرة المقبلـة، اطلـب منَّـا أن نضع لك الزبدة على الخبز.. نحن هنا لأجل ذلك، صح؟ اتفقنا؟ أوكيه؟

ومن بين جميع أعياد ميلادي السابقة، لم أجد بداية حفلـة واعـدة مثل بداية هذه الحفلة.. حفلتي الأخيرة.

(2)

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان".

(نكتة لا أكثر.. كان جوزيف روث يهذي بها)..

أفضل الأفكار في العالم هي تلك التي تنضج على مهـل، تمامًـا مثـل قطعة جبن قديمة معتقة.. وهكذا، كنت أبني خطـة ألزهـايمر الزائـف هذه خطوة خطوة، وأحيانًا ما تكون إحـدى هـذه الخطـوات عفويـة من تلقاء نفسها.. ليس بوسعي أن أحدد لـك عـلى وجـه اليقـين متـى وأين واتتني هذه الفكرة، ولكن لو أنـك مـصر عـلى أن أحـدد لحظـة بعينها، فسوف أخبرك أنهـا كانـت ذات ظهـيرة.. متـى بالـضبط؟ منـذ عامين، أو عامين ونصف العام، في نادي الكروكيه.. أجل، بالفعل، كنت أستمتع بهذه اللعبة مع رفاقي.. تريح أعصابي.. على عكس مـا كانـت زوجتي تراها؛ فهي تعتقد أنهـا لعبـة للمغفلـين، أو أنهـا مـن اخـتراع مصلحة الضرائب حتى تضمن اسـتمرار مبيعـات الخمـور والـسجائر، وبالتالي زيادة دخلها من الضرائب عليهما، وكانت كثيرًا ما تقول لي:

- تتكاسل عن تنظيف حديقة المنزل، كل مرة بحجة، ولكن عندما يحين موعد الكروكيه، يـدب فيـك النـشاط وتتقـافز كـالأحمق وأنـت

تضرب كرات الحديد من هذه الحفرة إلى تلك الحفرة.. كم مرة توسلت إليك حتى تأتي معي إلى معرض "موبيليا ساندرز" لنشتري دولاب فضيات جديدًا؟ "وكل مرة تطلع لي بحجة؛ عندي الضغط.. عندي الديسك.. حججك لا تنتهي.. أنت لا تهتم أصلًا بأن يكون لديَّ دولاب فضيات جديد، ولكن الحياة تدب فيك عندما يحين موعد لعب الكروكيه.. فلا ضغط ولا ديسك، ولا يحزنون"..

توقفت منذ فترة طويلة عن الرد على خطب زوجتي العصماء من هذا النوع.. صرت واحدًا من ملايين الأزواج الصامتين الذين يتحصنون من تلك الهجمات بسلاح اللا مبالاة.. تمرست على ذلك عبر سنوات وسنوات من الصبر.

كنت في البداية أرد على كل تهمة ظالمة توجهها إليَّ.. وكنت أوضح لها، بكل ضمير حي، أنني لا أشرب أبدًا أكثر من ثلاث كؤوس، وأنني طيلة زواجنا لم أعد إلى المنزل سكران.. إلا أربع أو خمس مرات، وهو

ما أدرك الآن أنه كان أمرًا جيدًا جدًّا لـصحتي العقليـة.. كنـت أحـاول كذلك أن أصحح نظرتها للأمور؛ فأقول لها:

- اسمعي.. في البداية لا بدَّ وأن تعرفي بأننا نلعـب كروكيـه ولـيس جولف.. الجولف فيه حفر.. لعبتنا أرقى من ذلك بكثير.

ولكن مرت السنوات، ومعها ذهب الشباب وذهـب شـعر الـرأس، وتعلمت بلادة الحس أمام سهام اتهاماتها، واحتفظت بالردود لنفسي، وعنـدما صـار المنـزل ملكًـا خالـصًا لنـا، بعـد سـنوات مـن الأقـساط، اكتشفت أنه قد تحوَّل إلى سجن كبير لي، ولكن عليـك أن تعلـم أننـي حافظت على احترامي لنفسي بأفعال فيها الكثير مـن المقاومـة: الـسم الذي تنفثه هـي يـتراكم عـلى قنـاع اللامبـالاة الـذي أحتمـي خلفـه.. يتمسك كلانا بموقفه بكل عناد.. كما أن العمر تقدَّم بنا في علاقـة غـير رومانسية أبدًا، حتى إن الحياة استمرت بنا على الرغم من أنها انتهت لدى أصدقاء وصديقات جمع الحب والعشق بينهم.

وعندما كرَّمنا عمدة مدينتنا في قاعة البلدية بمناسبة اليوبيل الذهبي لزواجنا، شعرت بالذنب وأنا أتذكر هؤلاء الأزواج العظماء الذين ماتوا قبل الأوان، بسبب السرطان أو لأن أحمق ما كان يقود سيارته بغباء.. كنت أخدع نفسي وأنا أقنعها بأنني أستحق إشادة العمدة، وأنه يشيد بي على أمر حققته بكل شجاعة وتضحية بالنفس.

وبما أن الناس في بلادنا يتعاملون مع الحكم والأمثال على أنها نصوص مقدسة، ويفترضون بشكل غير مألوف أنه طالما هناك دخان؛ فلا بدَّ من وجود نار، فلا يمكن أن يكون هناك شك في أن بعضهم.. على الأقل.. صدَّق زوجتي عندما بدأت مرة أخرى في الشكوى من أنني كنت مجرد زوج سكران وفاشل.. صحيح أنني أشرب كأسين من النبيذ الأحمر يوميًّا، وفي بعض الأحيان - وهذا استثناء - أشرب ثلاث كؤوس في المساء بعد العشاء.

اكتسب تلك العادة عندما كنت في منتصف الثلاثينيات من عمـري، ومن وقتها التصقت بي.. كدت أقول لـك إنهـا تلازمنـي، ولكـن أسرى دار المسنين لا يُمنحون الكثير من المتعة بعد تناول العشاء؛ فتنظيم الأنـشطة المسائية آخر هم العاملين هنا.. إنهم يسارعون بدس كل واحد في غرفته، حتى يتسنى لهم الجلوس أمام التليفزيون حتى يغلبهم النوم.

لكنني لم أضطر إلى التخلي عن ملذاتي الـصغيرة؛ فهنـا في المطعـم، أستطيع أن أطلب كـأس نبيـذ أحمـر الآن.. وفي آخـر النهـار، وعنـدما أكون جالسًا في الكرسي، عاقداً ذراعيّ، منكـسًا عينَـي، وراسـمًا الكآبـة على وجهي، في إتقانٍ تـامٍ للـدور، تـأتيني "كـورا" ذات الجـسد المثـير؛ لتصيح في وهي تدلك كتِفَي:

- أوه.. حبـوبي، أنـت جـالس هنـا هادئًـا ووحيـدًا مـن دون كـأس شراب.. إذا لم تكن حذرًا فسوف تصاب بالجفاف.. هل أحضر لك شيئًا تشربه؟

أنا شجاع بما يكفي لأطلب منها كأس النبيذ.. هذا مسموح لي، وهي رخيصة، لأنها مضروبة في الغالب، أقرب إلى عصير العنب منها إلى النبيذ، وتحتاج إلى تناول زجاجة كاملة منه حتى تتغلب على طعم الدواء في فمك وحسب.

- ها هو ذا، حبّوبي.. كأس النبيذ، ولكن احذر أن تسكر وتبدأ في الغناء.. هاه؟ فقد يظن الباقون أن حفل الظهيرة الراقص قد بدأ مبكرًا.. أوه..

بالمناسبة، شاءت العناية الإلهية أن أجلس في "الكانتين" وفي يدي كأس.. كانت لسوء الحظ تحتوي على بقايا الشراب عندما قررت زوجتي في ذلك الوقت بالتحديد أن تأتي لزيارتي.. كان ثاني يوم لي في الدار.. ما زلت أستطيع أن أراها وهي تسير حاملة سلة الفاكهة، وعلى وجهها ابتسامة تليفزيونية، وفي يدها الأخرى علبة شوكولاتة، وبالطبع، لم أنسَ أن أتظاهر بأني لا أعرفها.

- انظر حبّوبي.. من حضرت لزيارتك؟ زوجتك!

- مااااذا.. مَن؟

- زوجتك!

- أوه..

عندما تأكدت من أنني في مرمى بصرها، صاحت بطريقة مسرحية، على أمل أن تسمعها الممرضات المتعاطفات معها، باعتبارها زوجة مخلصة بائسة.

- لا أصدق.. حبيبي.. أنت تشرب هنا أيضًا! طبيعي أن تكون هذه هي حالتك إذًا!

لحظتها، نزل عليَّ الإلهام:

- اجلسي جواري، "كاميليا"، وتناولي كأسك.. على حسابي.. أنا معروف هنا!

تعرف طبعًا أن ردًا مثل هذا كفيلٌ بأن يفقدها صوابها.. خاصة لو علمت أن اسم زوجتي هو "مونيك"، وليس "كاميليا".. اسمها جميل.. وسيكون أجمل على شاهد قبرها.

يبدو أن الحديث حزين بالفعل؛ فقد كنت أحكي لك عن بداية هذه الخطة العجيبة.. بالفعل.. كان ذلك في يوم كنا نلعب فيه الكروكيه، واتتني الفكرة لحظة أن حكى صديقي "رولاند" حكاية ظنها مسلية.

بالمناسبة.. كان "رولاند" صديقي الأكثر عصريةً في الشلة كلها.. كان أول من استخدم الميكروويف، متجاهلًا كل الإشاعات التي رافقت ظهور الجهاز العجيب؛ كونه يسبب الأورام والسرطان وشتى الأمراض، وكان أول من اكتشف أن الأسطوانة المضغوطة - الـ"سي دي" - لا تشتغل على الوجهين، مثل شريط الكاسيت، وأول من اشترى المحمول وأثنى على مزاياه، وأول من أرسل رسائل "إس إم إس".. أرسلها إلى أشخاص حقيقيين تلقوها منه، وأول كمبيوتر أراه

على الطبيعة هو ذاك الذي كان في غرفة جلوسه، وبينما كنا نتجادل حول التأثيرات السلبية المحتملة للإنترنت في حياتنا الخاصة، كان هو يحصل على شهادة دورة تدريبية على الشبكة، وينشئ موقعًا إلكترونيًّا لأحد النوادي.

وكان "رولاند" يقوم بالتعامل مع البنك عبر الإنترنت، ويحجز تذاكر رحلاته من خلاله، ويلتقط صورًا لنا ونحن نلعب ويضعها على صفحته في "فيسبوك" (دون أن يطلب موافقتنا).. وسبق الجميع في شراء كل ما يحتاج إليه من مواقع الإنترنت.. كان من ذلك النوع من الأشخاص الذين تجدهم على دراية بكل شيء، لدرجة تصيبك بالغيظ، لكنه على الرغم من ذلك لا يتخلى عن صداقتك ويبادر باللجوء إليك:

"هناك شيء يجب أن أخبرك به".

ودائمًا ما تكون قصته تستحق أن تُسمع فعلًا: "أسترالي عرض حياته كلها للبيع على شبكة الإنترنت! حياته الفعلية.. كل ما كان لديه

وكل ما سيكون، ولكنه لم يدرج زوجته ضمن تلك المقتنيات؛ فقد تركته - هذا واضح - وربما هذا هو السبب الذي دفع ذلك المعتوه لأن يعرض نفسه بالكامل لصاحب أعلى سعر.. سوف تحصل عند الشراء على وظيفته البائسة في متجر للسجاد في "بيرث"، ومعها صديقتيه "ميلاني" و"إيم"، وهوايته هي القفز بالمظلات، ومنزله المكون من ثلاث غرف نوم، و"جِت سكي"، وعروسة باربي وحذاء رياضي ماركة كونفيرس، مقاس 42.

كان الرجل محبطًا تمامًا، وأراد مسح شريط حياته بأكمله، أمَّا الأكثر جنونًا من ذلك فهو أنه وجد مشتريًا بالفعل.. أكثر من مائة شخص سجلوا أسعارهم، حتى إن ثمن حياته وصل إلى مليوني دولار أسترالي"!

تملكتنا الدهشة من تلك الحكاية المذهلة.. أن تبيع حياتك كاملة.. ناقشنا الفكرة، حاولنا أن نتخيل ما سيكون عليه الارتباط بشخص لم

تكـن تعرفـه عـلى الإطـلاق، ولكنـك اشـتريته للتـو، أو أن تـذهب إلى شخص وتقول له:

- سررت بلقائك.. لقد اشـتريتك لتكـون والـدي.. كيـف حـال أمـي؟ ماذا.. ماتت؟ عفوًا، لم أكن أعلم ذلك، لم تذكره في الإعلان.. متى ماتت؟

انشغل بالي في تلك الظهيرة، ولم ألعـب جيـدًا، لم أركـز في المبـاراة، وأنا أتخيل بطل تلك الحكاية بدون عقل.. كنت أنتبـه عـلى صـيحات "رولاند" وهو ينبهني إلى دوري في اللعب، ويسخر من شرودي.

كانوا يضحكون، بينما أنا شارد.. أسدد الكرة في الاتجاه الخاطئ.

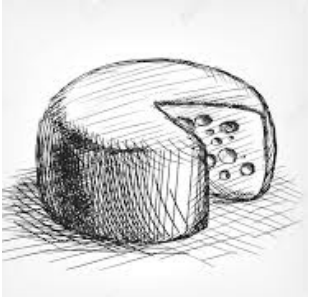

(3)

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان".

(نكتة لا أكثر.. كان "جوزيف روث" يهذي بها)..

ذكرى غريبة لقبلة ساخنة لم أحصل عليها أبدًا.

من هـم في مثـل سـني لا يمتلكـون حـسابًا عـلى "فيـسبوك"، أو أي خزعبلات تواصـل اجتماعـي تـساعدهم عـلى قتـل الوحـدة.. كـلا، إننـا نلتقي بعضنا البعض صدفة في أرض الواقع خصوصًا في الجنـازات؛ فهـي مناسبات التواصـل الطبيعيـة لأمثالنـا في خـضم العـالم الخـارجي الـذي يتداعى من حولنا.. وخلال آخر أيامي في دنيا الطبقـة المتوسـطة، كنـت أشعر براحة خدَّاعة وأنا أرتدي معطفي الأسود، استعدادًا لمرافقة رفيـق قديم إلى مرقده الأخير.. وبعد فترة، انتبهت إلى أنني كنت أقود سـيارتي إلى ذلك المثوى الأخير، وهي على وضعية القيـادة الآليـة، وأننـي كنـت أفعل ذلك كلما ذهبت إلى عملي في المكتبة طيلة كل هذه السنوات.

هل تصدقني لو قلت لك إنني أشتاق إلى ذلك الإحساس أحيانًـا؛ أن أقف وسط كنيسة باردة لأودع جثة أخرى؟ وتلك الطقوس المـسرحية - لا شك في أنه العرض الوحيد الذي تكون فيه الأدوار المساعدة أهم مـن دور البطولة - أصل في الصباح بينما تدق الأجراس لأجـل شـخص آخـر،

وتتجمع العجائز الشمطاوات وأصدقائي الذين هرموا أمام البوابة، وعلى وجوه بعضهم ذهول حقيقي أنهم لا يزالون يحضرون جنازات غيرهم قبل أن يحين موعد جنازتهم.. يتنهدون قائلين: "ها نحن ذا مرة ثانية؟"، قبل أن يأتي دور السؤال المحتوم.. "كم كان عمره؟ تسعة وسبعون.. أوه، لقد مات قبل أوانه، ولكن ما باليد حيلة".

أجل، ما باليد حيلة!

نحن اليوم نعتبر أنفسنا أصغر سنًا من أن نكون وليمة للديدان أو أن يزج بنا في تلك المحرقة؛ فقد صار الوصول إلى سن الثمانين وأكثر، مهمةً سهلةً في مثل هذه المناطق التي يحظى فيها السكان برعاية طبية متقدمة، حتى إن القطط تصل إلى سن العشرين بكل أريحية هذه الأيام، بفضل التطور الهائل في نوعية طعامها، وصار القط الذي ينام يحلم باصطياد فأر لذيذ سمين دقة قديمة.. ولكننا نحن العجائز ما زلنا نشاهد التليفزيون بكل غضب وغيظ كلما ظهر فيه شاب

رشيق واثق حـالم، ابتـاع للتـو سـيارته الثانيـة ولا يعـاني أي مـشكلات تُذكر، بينما يقف ليجعجع حـول جـدوى نظـام الـضمان الاجتماعـي، وأنه لا يمكن أن يشارك في الإضرابات ضد إصلاحات حزب اليمين، لأنه لا يرغب في أن يـساهم في معـاش تقاعـد أولئـك الـذين توقـف بهـم الزمن عند سن الخامسة والستين، وتشعر أنه يمـسك لـسانه بالعافيـة قبل أن يتلفظ بعبارة مـن قبيـل.. "مـا دام أن أولئـك الـصلع الأوغـاد قادرون على التسلي بهوايات ونشاطات، فما المـانع في أن يـستمروا في وظائفهم حتى موتهم؟!".

نـدرك نحـن – المتقاعـدين - عنـد بدايـة مراسـم كـل جنـازة أن الجثمان القابع في التابوت الذي يخرجونه من الليموزين الفاخرة هـو لعجوز ما.. عجوز منهك انتهت صلاحيته للأبد - مثلنا تمامًا - ولأن الحظ وحده هو الذي أبقانا بعيدًا عـن مثـل هـذا التـابوت حتـى الآن، ولأننـا نشعر بالحرج من هذا المتوفى، فإننا نجـد أنفـسنا مـضطرين لأن نتمـتم

بعبارات ملخصها أن الموت قد اختطفه من أجمل سنوات عمره.. على أن العدل تصور بـشري، ولا يمكنـك أن تجـده في أي مكـان عـلى أرض الواقع، أما إذا كان المأسوف على عمره قد مات بـسبب مـرض بـائس مؤلم؛ فعندئذ نتأسى على آلامه ومعاناته في آخر أيامه، قبـل أن نـشكر الرب على أن تلك المعاناة قد انتهت الآن.

نميل على الراقد في التابوت، وننثر قطرات من المـاء المقـدس فـوق غطائه، ثـم نعـزي أقاربـه الـذين لا يعرفوننـا ويتـساءلون عـن مـدى أهميتنـا في حيـاة الفقيـد - هـذا قبـل أن نـستجمع كـل قوانـا خـلال المراسم، حتى نبـدو أتقيـاء ورعـين، قـادرين عـلى الوقـوف ومكابـدة إحساس الدوار الفظيع - ونـسعد كثـيرًا بـالفقرة التـي يحرقـون فيهـا البخور وينتشر الدخان، حيث نتعلل بالـسعال وضـيق الـنفس لأجـل فرصة نحرك فيها سيقاننا التي تيبست من طول الوقوف، ونحن طوال الوقـت مجـبرون عـلى سـماع الأغـاني التـي اختارهـا الفقيـد لتكـون

في خلفية جنازته، وتعاني آذاننا وهي تحتمل فساد ذوقه.. وبعد الترانيم، يحملون التابوت ويختفون به عبر البوابة الكبيرة.. ذلك الثقب الأسود الغامض الذي يفضي به إلى عالم النسيان.. آمين.

جنازات "وينترلايت" لا تتقيد بطقوس أو مراسم بعينها، على الأقل بالنسبة لمن تقام جنازته تحت هذا السقف.. أولئك المنسيون، والذين لم يعد الناس يفتقدونهم حتى قبل زمن من موعد مرورهم في ذلك الثقب الأسود.. تجد القس يتلو صلواته في عجالة وبإيقاع متسارع أمام جمهور قد لا يتجاوز أحيانًا سيدة وحيدة لا تدري من الأساس سبب وجودها في القداس.. لن تجد مسيرة جنازة، ولا قرع أجراس، ولا كلمات رثاء لحياة صارت تفاصيلها نسيًا منسيًّا، والذكرى الوحيدة لها هي تلك الأوراق بين دفتي الملف الطبي للفقيد.. وفي خلفية المبنى هناك عربة تنتظر الرفات، في المكان نفسه الذي يضعون فيه حاويات القمامة، وسرعان ما تنطلق به في هدوء.. وتخلو القاعة

في انتظار الجنازة التالية.

لكن الأمر لا يخلو من ثرثرة في ساحة البلدة مع بقية الرفاق بعد انقضاء الجنازة، حيث نجتر بعض الذكريات..

خلال آخر جنازة حضرتها وأنا سليم العقل أمام الناس، كنا نقف تحت الأشجار، لحظة أن قال أحدهم: "لا بدَّ أن الدور على "روزا روزيندال" في المرة المقبلة!".. ما زلت أتساءل عمَّا إذا كان الحنق والامتعاض كان واضحًا على وجهي لحظتها أم لا؟

روزا.. روزا روجوزا.. روزا نيتيدا.. روزا فيلوزا.. روزا روزيندال..

مر نصف قرن على آخر مرة سمعت فيها أحدهم يذكر "روزا روزيندال".. وأصارحك بأنني يئست من أن أسمع اسمها من جديد.. ظننت أنها رحلت لتعيش في مكان آخر، حيث حياة أكثر حيوية وإثارة، بصحبة رجل آخر، بالطبع.. تصورت أنها أنجبت أولادًا

تخرجوا في الجامعات، وأنها بعد أن أكملت رسالتها في الحياة وجـدت نفسها في خضم رسالة أخرى.. رسالة الجدة.

"روزا روزيندال".. بلغتُ السادسة عـشرة في الليلـة التـي راقـصتها فيها.. كانـت أول فتـاة أراقـصها في أول حفلـة أحـضرها بموافقـة مـن والديّ.. مركز "الباتروس" للحفلات.. يوم معرض البلدة، وكان "فيكتور فارتل"، بطل البلدة المتوج، قد فاز في وقت سـابق مـن اليـوم بـسباق الدراجات النارية السنوي، وأضحى انتصاره محور الدردشـة في البـار.. بعدها كانت فقرات فرقة "الثري جاكسونز" الموسـيقية The Three Jacksons هي التي تحيي قاعة الرقص بمعزوفـات الأكورديـون التـي أمتعت المراهقين والمراهقات.

تخطئ لو ظننت أنني كنت ساحرًا صيادًا للفتيات إلى ذلك الحـد؛ فقد كانت "روزا" هـي التـي طلبـت منـي أن أراقـصها - الأمـر الـذي جعلني أشعر بأنني أسعد البـشر حظًـا - "روزا".. التـي لم أكـن أجـرؤ

على النظر إليها، هأنذا أراقصها.. تعجز حتى الآلهة عن تخيل السبب الذي يمكن أن يكون قد دعاها إلى مراقصتي.. ليست الآلهة السبب، وليس أنا بالتأكيد.. شعرتُ بأن عليَّ أن أعتذر لجميع الفتيان الذي يحدقون فيَّ بدهشة وسط دخان سجائرهم الرخيصة.. هل عليَّ أن أنبهك إلى أنني كنت بالكاد أجيد الرقص؟ ولكن يبدو أنني كنت في نظرها جيدًا كفاية لأن تستمر في مراقصتي لأغنية أخرى.. كانت أغنية روك آند رول، تلك الصيحة الشيطانية الجديدة في عالم الغناء آنذاك، ولذلك لم يكن حرصي الشديد على أن أرقص من دون أخطاء كافيًا.. أخبرتني أنها تشعر بسخونة جسدها، وتريد أن تخرج في الهواء الطلق وطلبت مني أن أكون معها.. ها هي تقوم بالتمهيد لكل شيء على أتم وجه، وحان الدور عليَّ الآن.. لم تعد هناك فائدة من التظاهر بأنني لا أعرف ما تريده؛ فلا توجد فتاة في تاريخ البشر تطلب من فتى أن يخرج معها هكذا من دون سبب، وخصوصًا لو كان يراقصها

للتو، ولكنني على الرغم ذلك لم أفعل أي شيء حينما خرجنا.. وقفت فحسب إلى جوارها.. وقفت فحسب، منشغلًا بالتفكير في أكثر الأفكار بؤسًا في موقف مثير مثل هذا الذي جمعني بها.. وجدتني أسألها أسئلة ساذجة.. مدرستها؟ حبها للمدرسة؟ ماذا تريد أن تعمل عندما تتخرج؟ و.. عمَّا إذا كانت تخطط لتكون أمًا؟! وعدد الأطفال؟! كانت حفلتي الأول ويبدو أنني كنت أريد أن أبين لها أنني جنتلمان، وأنني عميق.. ومن بين كل الأسرار الكبرى لإناث البشر، كنت مقتنعًا بأنني أعرف سرًا: "إن المرأة تخاف الرجل المتهور الطائش قنَّاص الفرص".

صار جسد "روزا" باردًا الآن (رغم أنه كان عليك أن تزيده سخونة أيها الأحمق).. وطلبت مني العودة إلى الداخل، حيث الموسيقى والرقص.. أدركت تمامًا أن الفرصة قد ضاعت، على الرغم من أنها كانت بين يديَّ، في طبق ذهبي.. ما الذي يمكن أن تكون "روزا" قد فكرت فيه؟ أنني لستُ رجلاً كفاية؟ أنها ليست جميلة

كفاية؟ لا أعرف، ولكنني أعرف يقينًا أن العصفورة طارت، بـلا عـودة، وفي الأشهر التالية، كنت أرى "روزا" بصحبة شـاب لـه شـارب محـترم، وكانت رؤيتي لها معه تصيبني بغصة ومرارة، ولكن أخبارها انقطعت عني بعد ذلك، ولـو أخـبرني أحـدهم أنهـا قـد سـافرت لـصدقته عـلى الفور.

هناك مراحل يتحتم على كل إنسان أن يمر بها، وأحيانًـا مـا يكـون لها سبب، ولكن الصدفة هي المهيمنة في أغلب الأحيان، ونجد أنفسنا نعود إلى لحظة محورية في وجودنا نتساءل فيها عمَّ قد يكون مـصيرنا لو أننا اخترنا طريقًا مختلفًا؟! مـن البـديهي أن تجـد هـذا الكـلام بـلا طائل، وأنه ليس سوى جلد للـذات، وأن ميـولي المازوخيـة هـي التـي تنتقل بأفكاري إلى "روزا روزيندال"، وتلك الليلة التي جمعتنا في مركز "الباتروس" للحفلات.

رسم خيالي كل السيناريوهات الممكنة لنا سويًا بعد تلك الليلة، ولكنه مجهود ذهني بائس لا يُفضي إلا إلى انتصارات زائفة لشخص أشد بؤسًا.

ها هو الاسم يرتد في وجهك مثل "البُمِرَنج" Boomerang بعد كل هذه السنين.

"لا بدَّ أن الدور على "روزا روزيندال" في المرة المقبلة! سمعت أن حالتها الصحية تدهورت فجأة - تصلب في الشرايين - كان عليهم أن يدخلوها دار مسنين.. لم تكن عجوزًا حتى.. يا لها من مسكينة"!

توقف الكلام فجأة، وراح كل منا إلى حال سبيله.. هناك من سيقضي ما تبقى من اليوم في تهذيب أشجار حديقته، ومن سيعتني بحظيرة الدجاج، ومن سينظف مدخل منزله بالمكنسة.. تبادلنا أطيب الأمنيات وانصرفنا.. ونحن نعلم أننا لن نلتقي مجددًا إلا في أقرب جنازة تالية.

(4)

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان".

(نكتة لا أكثر.. كان جوزيف روث يهذي بها).

ذكرى غريبة لقبلة ساخنة لم أحصل عليها أبدًا.

فتات خبز.

كان يومًا من تلك الأيام الصيفية جدًّا التي نادرًا ما تمر بها سواحل بحر الشمال.. كان يوم زيارة أولادنا لنا، جلسنا في الحديقة حيث كانوا ذات يوم (أتذكره وكأنه حدث بالأمس) يلهون فوق المراجيح في براءة وملل، أو ينشغلون ببناء قلاع من الرمل.

ابننا "هوجو" مع "ليزا"، عاهرته الثالثة، وعصابة المراهقين من أصدقائهما، كما حضرت ابنتنا "شارلوت"، التي بدت في انسجام مع "باسكال"، أول حب حقيقي لها، ربما لأنهما كانا أعقل من أن ينجبا، ولكن زوجتي، التي لا تترك موضوعًا من دون أن تفتي فيه، أرجعت سبب عدم الإنجاب إلى أن أحدهما، أو كليهما، يعاني من العقم.

- بالطبع هذا هو السبب، وإلا ما الذي قد يجعل حبيبتنا "شارلوت" تبقى هكذا بلا أطفال؟ ربما يكون هو العقيم، خاصة مع إصراره على ارتداء هذا الجينز الضيق دومًا.. إنها بنطلونات قبيحة وتسبب العقم للرجال بكل تأكيد!

دائمًا ما تصر على تحويل دفة الحديث إلى هذه النقطة كلما زارتنا "شارلوت".

وفي تلك الظهيرة الصيفية، أظهرت الست الوالدة أنها تفتقر إلى أدنى حد من الذوق، عندما قامت فجأة بإخراج أقراص دواء.. فعلت ذلك فور أن وضعت أمامنا طبق شرائح التوست مع الجبن الكريمي والفجل الأحمر.

- انظروا، هل يستخدم أيًّا منكم هذه؟ إنها أقراص تساعد على الانتصاب! كتبها الدكتور لأبيكم، ولكنه كان يرفض تناولها! لا أحد يريدها؟ ولا حتى أنت، "باسكال"؟ كلا؟ متأكد؟ مئة في المئة؟ هل أنت متأكد؟ سوف أرميها.

لك أن تتخيل ذلك الصمت الغريب الذي حلَّ علينا في الحديقة، بينما يتحاشى الجميع النظر ناحيتي.

ربما ترغب في سؤالي عمَّ سبق ذاك المشهد؟

لم أكن أعرف أن الحرباء زوجتي، التي تتخذ لنفسها اسم "مونيك دي بيتر"، قد ذهبت لتشتكي من حياتها الجنسية التي يُرثى لها.. قالت لي وهي عائدة ذات مرة من الخارج:

- تحدثت مع الدكتور "دومولين" عن مشكلتك، أتعرف ماذا فعل؟ أعطاني هذه: "ليفيترا"! إنها مثل الفياجرا، ولكنها ليست بنفس شهرتها.. فعالة مثلها تمامًا، كما أن ميزة عدم شهرتها هي أنك لن تشعر بأي حرج لو نسيت العلبة في أي مكان حولك.

قد يقتل الزوج زوجته لأسباب أتفه من هذا السبب.

شعرت بالإهانة، طبعًا، أمام ولديّ، وقد كانا من الذكاء بحيث عمدا

إلى تغيير الموضوع سريعًا.. (أخذ "هوجو" يحكي عن جزيرة كريت، وحلاوة الطعام هناك، وكيف أن كل شيء فيها رخيص)..

الأمر يتجاوز حدود الوقاحة، فقد كان في هجوم زوجتي العلني هذا ظلم كبير لي؛ ففي بداية علاقاتنا الزوجية، في أوائل الستينيات، أقنعتني "مونيك" بأنني حيوان جنس، لمجرد أنني كنت جريئًا بما يكفي لأن أطلب منها أن تمارسه معي بأكثر من وضع، كما كانت رغبتي الجنسية عارمة، مقارنة ببرودها.

كانت تجد في ممارسته مرتين شهريًّا أمرًا كافيًا جدًّا؛ فنحن لسنا أرانب! وكنت أتوقف عن ذلك تمامًا طوال فترتي حملها.. كنت أشمئز من فكرة خيالية رسمها عقلي؛ تجعل ذلك الجنين شاهدًا واعيًا على كل ما أفعله بها، وبالتالي كنت أفقد أي رغبة، هذا إن وجدت بداخلي أي من هذه الرغبة، وأنا أراها على تلك الهيئة.

وحتى أتقي شر اتهاماتها، بدأت أترك لها أمر التلميح إلى الرغبة في الجنس، مع أنني أدركت أن ذلك لم يكن في مصلحة حياتي الجنسية، ولا يمكنني أن أقول بكل يقين بما إذا كانت تصل إلى رعشة النشوة أم لا.. والصراحة أنني لا أعتقد هذا (ولم يكن لدي خيار أن أسألها عن ذلك مباشرة)، ولكنني توقفت عن الانشغال بمثل هذا الأمر منذ زمن، ولا أنكر بالطبع أنني، مثل أي شاب، كنت أرسم صورة بديعة لمغامراتي في تلك الحلبة الجنسية، ولذلك بقيت أعاني في صمت من مرارة الواقع في الفراش، ولم أفكر أبدًا في أن أبحث عن تلك السعادة المسلوبة في أحضان امرأة أخرى.. مع أنني كنت لأغفر لنفسي تلك الخيانة، ولم أكن لأضطر أبدًا للاعتراف بخيانتي؛ لذا فأنا أعتقد أنني من حقي أن أعيش لنفسي لبعض الوقت، ولكنني لم أعرف سوى برودة "مونيك" ولم يكن لديَّ من سبيل يتيح لي التعويل على ذلك في استعادة ثقتي في نفسي وقدرتي على أن أبادل أنثى أخرى

العشق والحب، ولا بدَّ أن أصارحك أيضًا أنني لم أصادف امرأة لمحت أو صرحت لي بأنها تريد جسدي.. وهكذا تلاشت الرغبة شيئًا فشيئًا، حتى إنني كنت سعيدًا يوم أن راحت تمامًا من جسدي وروحي.. كانت عبئًا عليَّ؛ فحتى قبل أن نصل إلى عمر الأربعين، كان بمقدوري أن أحصي عدد المرات التي تلاقى فيها جسدانا طوال العام على أصابع اليد الواحدة.

أمَّا الغريب فهو أن شبق زوجتي استيقظ في الفترة نفسها التي ماتت فيها الرغبة لديَّ.. في ذلك الوقت كنا ننام في غرفتين منفصلتين، وتعللنا بأن هذا بسبب أن أحدنا يشخر في نومه، والآخر يتقلب طوال الوقت في الفراش، ولكنها بدأت، فجأة، تطرق باب غرفتي في مرات تزايد عددها، وكان عليها أن تتعلم درسًا قاسيًا وأن تنتظر مني الرفض، مثلما أدى رفضها إلى تمرغ رجولتي في وحلها منذ زمن.

كنت أرفض بسخرية، ولكنها فقدت حس الدعابـة، الـذي لم يكـن أصلًا لديها.

صارت فجأة في مـزاج يـسمح بالحـب والجـنس، بعـد أن أصـبحنا قبيحين وتقدمت بنا السن.. هل تجـاوزت الأمـر؟ كـلا، لم تتـسم أبـدًا بروح رياضية عند الخـسارة وانتقمـت منـي عـن طريـق إذلالي أمـام الآخرين.. وهكذا ظل باب غرفة نومي مغلقًا في وجهها بـشكل دائـم، فعلًا ومجازًا.. ما يحـدث، أو بـالأحرى لا يحـدث، لـيس مـن شـأن أي شخص آخر، ولكن الآن شعرت برغبة ملحـة في إخبـار ولـديَّ بـأن مـا تتحدث عنه هذه المرأة ليس سوى معجـزة لا يـسعهم تـصورها عـلى الإطلاق، بالنظر إلى تلك البرودة القارسة لمشاعرها.

حـدقت فيهـا، تلـك المنافقـة الدمويـة الواقفـة أمـامي، وفي يـدها شريط أقراص الانتصاب.

كان على أحدنا أن يتغلب على الآخر؛ بالعقل، وحسن التدبير.

خصوصًا الآن، وخطتي الأخيرة تنضج ويحين أوان تنفيذها.

لـذلك قـررت الـصمت - وأنـا بـارع في الـصمت - كـما أنـه مـن الضروري ألا أفسد حفلة الحديقة هذه.

كنا نخطط لإبلاغهما بأن هذه ستكون آخر مرة نجلـس فيهـا معًـا كعائلة في هـذه الحديقـة، وكـان الـسبب بـسيطًا؛ فقـد كـان الاعتنـاء بالحديقة يستغرق مني الكثير من الوقت والجهد الذي لم أعد أطيقه، كما أن آلام أسفل ظهري صـارت فظيعـة.. أهملـت الحديقـة وتركـت الطبيعة تفعل ما يحلو لها بها، حتى إنني لم أُخرج المقص من المخـزن منذ عام.. لا متعة في أن يتقدم بك العمر وتصبح عجوزًا.. وإلى جانب الحديقة، كان هناك سورها الخشبي، الذي يحتاج إلى طلاء كل سنتين، إن لم يكــن ســنويًّا، بالإضــافة إلى جميــع المهــام الأخــرى التــي لا

تُحصى، والتي يحتمها أن تكون صاحب منزل وحديقة؛ حنفية بحاجة إلى تغيير، باب بحاجة إلى تثبيت، غسالة تنتظر منك إصلاحها.. مهام هائلة لمن هو في عمري.

تقول لي زوجتي:

- كسول! تيأس بسهولة! انظر إلى باب حديقة جارنا، كم هو جميل! لقد شذَّب "ميشيل" أشجار حديقته هذا العام على شكل بجعات.. لو أن سائحًا يابانيًّا مر في هذا الشارع، لتوقف ليلتقط لها الصور على الفور.. أتعرف كم هو عمر "ميشيل"؟ إنه أكبر منك بثلاث سنوات!

تعتقد "مونيك" أن المتاعب البدنية للتقدم في العمر مجرد منافسة رياضية.

- ألا ترى "لوشين"؟ إنها تمشي بالعافية! وتبذل جهدًا كبيرًا حتى

لترفع قدمها عن الأرض، قلت لها إنها إن لم تتحلى ببعض الشجاعة وتقاوم هذا العجز، فلسوف تموت عمًّا قريب! في عمرنا يكون للكسل ثمنه الفادح، ولكن الجاحدة لم تفهم معنى كلامي.. لن أنسى أبدًا نظرتها لي وقتها.

كانت "مونيك" لا تحب أن يعرف عنها الجيران أنها بدورها قليلة الحيلة أمام الشيخوخة.. صارت جولتها بالمكنسة الكهربائية في أرجاء المنزل أشبه بنزهة فيل، كما أنها تتوقف كثيرًا لتلتقط أنفاسها المتهدجة، وبدأت تتأرجح بها الدراجة في رحلتها اليومية إلى المخبز، حتى إن سقوطها على الأرض ذات مرة - وهي المتقاعدة التي تعاني هشاشة العظام - كان بداية النهاية، وكسر في عظمة الحوض هو كابوسنا الأكبر.

كانت الأيام التي احتاجت إليها للشفاء طويلة ومؤلمة، لكننا كنا مستعدين لبيع المنزل والسكن في شقة، ولكنها حاربت الفكرة بشراسة،

واعتبرتها مؤامرة واعترافًا صريحًا بالهزيمة.. استسلام جبان.

تنفست الصعداء عندما اقتنعت "مونيك" في النهاية أن الوقت قد حان للسكن في مساحة أصغر في قلب المدينة، حيث توجد متاجر أكثر، وأعمال منزلية أقل.. ما عجَّل بقرارها هو سقوطها في الحمام؛ لم تتأذَ كثيرًا، ولكنها بقيت راقدة في البانيو لثلاث ساعات قبل أن أنتبه لبكائها وصراخها طلبًا للمساعدة.

أصبحت فكرة العيش في شقة حديثة أكثر منطقية حينها، ولكن ما قضى على سعادتي بأنني لن أضطر لطلاء جدار أو إبادة الحشرات والحيوانات المزعجة، هو اشمئزازي من حقيقة أنني ذاهب إلى مكان جديد بصحبة هذه المرأة؛ فعلى الرغم من متاعبها، فإن هذه الحديقة كانت ملاذًا لي بعيدًا عنها طوال تلك السنوات.. كانت بمثابة مكاني الخاص في الكون، أمَّا في الشقة، فسوف أكون أقرب إلى زوجتي، الوجه في الوجه، وإذا كنا محظوظين، فسوف نعثر على شقة ذات

بلكونة كبيرة بما يكفي لوضع ستاند الغسيل وأواني زهور.. لم أكن متحمسًا لعرض منزلنا للبيع، والتعامل مع السماسرة الجشعين والمشترين المزعجين، وتلك الحوارات اللزجة مع ممثلي البنوك، الذين لا يتورعون عن عصرك حتى آخر قطرة إذا شعروا أنك بحاجة إلى قرض بسيط، فهذه بوابتهم المثالية إلى متاهة الأوراق القانونية ومفاوضات تخسرها بكل تأكيد، ناهيك عن احتياجي الآن للتقدم بطلب للحصول على رقم تليفون أرضي جديد، وفوق كل هذه اللخبطة، وجدت "مونيك" تشتكي مرة أخرى؛ قلبها لا يطاوعها على التخلص من كل تلك الكراكيب التي احتفظت بها في الصندرة، وتفكر في جمعها تمهيدًا لاصطحابها إلى شقتنا الجديدة، ومثلها مثل العديد من النساء، كانت زوجتي مدمنة أحذية؛ لا تمر على محل أحذية إلا وهي تشعر باستثارة غريبة، ولا تبتعد عنه إلا بعد أن تكون قد خرجت منه بزوج جديد - أقصد الحذاء بالطبع - وهكذا، كان في خزانتها مائة وخمسة

وأربعون حذاءً، وهي ليست على استعداد للتخلص من زوج منها.. أضفْ إلى ذلك حقيقة علمية مؤكدة تقول إن لكل حذاء حقيبة اليد التي تلازمه.. هكذا أدركت أن الشقة سوف تتحول إلى معرض للمصنوعات الجلدية، وجدتني أغلق عينيَّ كي لا أسمعها وهي تسرد مجموعتها الكاملة من الملاحظات الذكية:

- لماذا يتوجب عليَّ أن أتخلص من أحذية أو حقائب لأوفر المساحة؟ إننا لن نصطحب معنا آلة قص الحشائش مثلًا؟ أو أدوات النجارة خاصتك؟ لن يفيدك هذا الحقد على ما أملكه!

لا.. لا يمكن أن أحتمل كل هذا.. دعك من تلك المناقرة حول اللون الأفضل للستائر الجديدة، وتصميم الحمام، وذوق بلاط المطبخ.. كلا، هذا يكفي! لقد سبق لي أن شاركت "مونيك" تشطيب منزلنا، ولم تكن تجربة رومانسية على الإطلاق.

وضعنا أطباق الطعام أمامنا، وقالت الأم:

- يا أولاد، لدينا أمر مهـم سـنخبركما بـه! مـا رأيـك أن تخـبرهما أنت، حبيبي؟

- هاه؟ ماذا؟

- هلا أخبرتهما؟

- عن ماذا؟

- تعرف.. ما كنا سنقوله لهما.. الخبر.. طبعًا.

- الخبر؟

- أجل.. الخبر؟

- ألا يمكن أن ينتظر لما بعد الطعام؟

- ولماذا علينا أن ننتظر؟ أليس الجلوس إلى الطعام فرصة لكي نعرف أخبار بعضنا البعض؟ هيَّا.. أخبرهما.. سيظنان أنه خبر سيئ.

- حسنًا.. كما تريـدين.. "هوجـو".. "شـارلوت".. علينـا أن نخـبركما أمرًا، وهو أن أمكما قد اشترت حذاءها المائة والخمسين!

ضحك "باسكال"، زوج ابنتي، بصوت عالٍ، لكنه كان الوحيد الـذي ضحك.

هكذا اضطرت "مونيك" إلى أن تخبرهما بنفسها:

- لم يعد بابا قادرًا على الاعتناء بهذا المنزل بعـد الآن، لـذلك بـدأنا نبحث عن شقة صغيرة ليكون أكثر راحة فيها!

كنت على يقين من أنني أرى خيبة أمـل عميقـة في عينيهـا؛ لأنهـا لم تجد ما كانت تتوقعه من حزن وأسى على منزل الطفولة.. كانت تتمنـى ردود فعل مسرحية؛ بانتومايم (فـن حركـات إيحائيـة) حـزين مهمـوم،

وهما يتذكران مرح الطفولة في منزل ينبغي الاحتفاظ به للأبد، ولكـن رد فعل "هوجو" و"شارلوت" كان محايدًا ومقتضبًا:

- كان ينبغي عليكما فعل ذلك منذ زمـن بعيـد.. كـم هـو صـعب على بابا أن يصعد السلم ليعتنـي بطـلاء إطـارات النوافـذ أو تنظيـف المزاريب، وهو يعاني آلام الظهر القاسية.

فجأة، سمعنا صياحًا لا داعي له:

- التورتة! نسيت شراء التورتة!

يتفق خبراء التغذيـة عـلى أن وجبـة الإفطـار هـي أهـم وجبـة في اليوم، ولكن أهم وجبة بالنسبة لـ "مونيك" هي تلك التي تتكون مـن أطباق الحلوى والزبدة والقشدة والفاكهة المجففة في أطباق الجـيلي، وكان نسيانها لشراء تورتة ظهر هذا اليوم علامة مقلقة للغاية؛ فإذا لم أكن حذرًا كفاية، فسوف تصاب بالخرف قبل أن أصاب أنا به!

- "مونيك"، أرجوكِ ألا تقلقي بشأن التورتة.. الطعام كثير بالفعل.. الأفضل ألا نأكل كثيرًا الآن، حتى لا نتعب أكثر في الجيم غدًا.

("ليزا" هي من تحدثت.. رفيقة ابني.. وهي رياضية القوام، ولا ترى في حبة البطاطس إلا كتلة من البوتاسيوم).

ولا بدَّ أن زوج ابنتي كان سعيدًا لعدم وجود التورتة، لقد اضطر المسكين لتناول ثلاثة أطباق تم وضعها أمامه - وكذلك طبق البطاطس المهروسة - وهذا بسبب إلحاح حماته، التي تريد أن تغذيه، لغرض ما في نفسها:

- شاب مثلك بحاجة إلى أن يأكل جيدًا!

وعندما اعتذر عن عدم قدرته لتناول الطبق السادس، صاحت فيه:

- تنهي طعامك مبكرًا! عيب عليك يا ولد.. أتعرف ما كنت أسمعه في عائلتنا وأنا صغيرة؟ أكل قليل، فعل قليل! هكذا كانوا يقولون.

عدنا للحديث عن التورتة.. لا بـدَّ مـن وجـود التورتـة مهـما كـان الأمر.. لا يمكن أن تمر وجبة عائلية في الحديقة من دون نهاية كريميـة حلوة!

- هيَّا، حبيبي.. خذ السيارة واذهب لتحضر لنا تورتة على ذوقـك! حرك ساقيك!

عدت إليهم بعد ساعة ونصف الساعة.

- كل هذا الغياب، يا "روبنسون كروزو"؟ كما أنك نسيت المحمول هنا، فلم نتمكن من التحدث إليك، لقـد تـسببت في قلـق "شـارلوت" عليك.. كانت تأكل أظافرها من فرط العصبية، بسببك!

- ما الذي تقصدينه؟ تعرفين أين كنت.. ألم أذهب لشراء تورتة؟

- أيحتـاج هـذا إلى سـاعة ونـصف الـساعة؟ أم أنـك سـتقول إنـك انتظرت حتى صنعوا التورتة؟

- تورتة؟

تساءلت في حيرة، وأنا أضع أمامهم كرتونة تحوي جهازًا جديدًا لتحميص التوست:

- أحدث موديل.. كما أنه رخيص! مع ضمان سنتين..

راقبت نظرات الدهشة والفزع في أعين صغيريَّ، وأدركت ما يفكران فيه..

لم يتخيلا أبدًا أن هذا هو المشهد الأول من المسرحية التي قررت إخراجها..

كانت الأم قابعة في مقعدها؛ ذلك المغطى دومًا بالأغطية حتى لا تتسخ وسائده، في انتظار موعد بداية المسلسل الذي تداوم على مشاهدته منذ ثلاثة وعشرين موسمًا.. سألتني:

- ما رأيك في أن نلعب لعبة؟

لم تكن "مونيك" من النوع الذي يحب الألعاب، ولكن ربما وجدتها فرصة لبداية حوار معي..

- أي لعبة؟

- لعبة الذاكرة! أنا ذاهبة إلى السوق!

- أنتِ ذاهبة إلى السوق؟

- كلا، هذا هو اسم اللعبة.. مثلًا أقول: "أنا ذاهبة إلى السوق لشراء علبة إسعافات أولية".. عندئذ يكون دورك لتضيف شيئًا ما، ولكن عليك أن تتذكر ما اشتريته أنا أيضًا حتى تحصل عليه مني.. تقول: أنا ذاهب إلى السوق لشراء علبة إسعافات أولية، وثلاثة أزواج جوارب.. وهكذا.. مستعد؟

- لا أريد أن أذهب للسوق.. اذهبي أنتِ.

كانت الحلقة المليار من مسلسلها توشك أن تبدأ؛ فوجدت فيها العزاء..

بدت الخطة سهلة على الورق؛ سوف أتصرف أقرب ما يكون إلى شخصية العجوز المعتوه التي نشاهدها في أفلام الغرب الأمريكي.. ببطء ولكن بطريقة لا يمكن تجنبها، مع شيء يشبه شعور بالعظمة، سوف أبدو شاردًا متواريًا في ضباب، هو في الحقيقة من صنعي أنا.. تتدهور حالتي برفق، إلى أن ينسدل الستار على حياتي دون أن يلاحظ ذلك أحد.. فإذا كان هناك شيء اسمه فن الحياة، فيجب أن يكون هناك فن الموت.. ولكن شغفي بالنتائج كان شديدًا لدرجة أنني اضطررت إلى توخي الحذر حتى لا أقع في فخ المبالغة في التمثيل.. وما هو أكثر من ذلك هو أنني بالفعل في عمر متقدمة، وبالفعل أنزلق إلى وضعية بائسة من النوع الذي يتوجب على جميع المسنين التعامل معها عاجلًا أم آجلًا.. ليست هناك حاجة لأن أسرد عليك قائمة المهارات التي صرت

أفتقر إليها بالفعل في الوقت الذي بدأت فيه مغامرتي الكبيرة الأخيرة، ولكنها كافية لأن تجعلك تبكي أسفًا، علاوة على أمراضي المستعصية.. أنا أنطلق نحو القبر بسرعة كافية.. حياتي، التي كانت مخيبة للآمال إلى حد كبير، تقترب من نهايتها.. وكنت أعلم أن خطتي الصغيرة لن تؤدي إلى أن تنسى الدنيا وجودي فيها بأي حال..

الغريب هو أنني قررت أن ألعب دورًا كنت أخشاه تمامًا.. ألزهايمر.. لقد سمحت لي ذاكرتي القوية، طيلة ثمانية وثلاثين عامًا، أن أقوم بمهام أمين المكتبة من دون أي مشكلات؛ وذلك في أيام شهدت بداية استبدال بطاقات الفهارس بشكل تدريجي بأجهزة الكمبيوتر، وكان علينا وقتها أن نعتمد كليًّا على قاعدة البيانات التي استقرت في عقولنا.. فإذا زودتني باسم موضوع أو مؤلف، فسوف أسرد لك سلسلة كاملة من عناوين الكتب - دون تردد - وإذا قال أحدهم "لويس ألبرشتس"، مثلًا، فيمكنني أن أرد على الفور..

"تخطيط المدن والمناطق في أسكتلندا".. وهأنذا أذكر كتابًا لم يستعره أي أحد ولو مرة (فمن هذا الذي يمكن أن يهتم في بلدتنا بكيفية تخطيط الأسكتلنديين لمدنهم ومناطقهم؟)، ولكن العنوان ترسخ في ذهني لأنني كنت أراه كل يوم.. وربما كانت هناك الآلاف من الأسماء والعناوين والموضوعات من هذا القبيل، والكتب التي يمكن أن أحضرها في لمح البصر، وهي موهبة متواضعة كانت هي مبرر وجودي في نظر العديد من الطلاب البطيئين المصابين بالملل من موضوعات المقالات أو الأبحاث التي عليهم تنفيذها.

يقول الناس إنني قوي الذاكرة مثل الفيل، لكنني صرت الآن أنسى مكان نظارتي عشر مرات على الأقل في اليوم، ومفاتيح سيارتي في كثير من الأحيان، وتدخل أسماء الجيران من أذن لتخرج مباشرة من الأخرى.. وإذا لم تكن معي ورقة بها قائمة التسوق، فمن المؤكد أنني سوف أعود إلى البيت ومعي أصناف بقالة غير مطلوبة أبدًا.. كان

شرود ذهنـي أسـطوريًّا، بقـدر مـا يوجـد فيَّ أي شيء أسـطوري عـلى الإطلاق.. كـم مـن مـرة وضـعت فيهـا طبـق اللازانيـا في الفـرن الـذي نسيت أن أشعله.. لقد أفسدت محرك سيارتي مرتين، نعم مرتين، بملء خزان الوقود بالديزل بدلًا من البنزين.. ويتنـدر الـصغار في اللقـاءات العائلية بقـصة المـصيف؛ يـوم أن غادرنـا ذات مـرة لقـضاء عطلـة في بحيرة "بورجيه"، وجهتنـا المفـضلة، ولكننـي لم أدرك إلا عنـد الحـدود الفرنسية أنني نسيت ربط الكارافان بالـسيارة.. وكانـت "مونيـك"، في أغلب الأحيان، تستغل مثل هذه المواقف:

- ها أنت ذا.. مصاب بمتلازمة جورباتشوف؛ بسبب الخمر وليس غيرها..

كنت أرى أنهم لم يختلفوا عني في ذلك الموقـف؛ فهـم بـدورهم لم ينتبهوا إلى غياب الكارافان.. ولكن لا، فأنا السائق، وأنا من ينظـر بـين

لحظة وأخرى في المرآة، وبالتالي أنا المسؤول الوحيد عن تلك المسافة الطويلة التي أهدرت بسبب غفلتي.

على أي حال، لم أكن مرتاحًا تمامًا لحالات النسيان، وذهبت بهمومي إلى طبيب أعصاب صديق لي.. فما الذي يدفع خلايا مخي لأن تتذكر معلومات موسوعية معقدة بينما تنسى تمامًا أرقام التليفونات التي أستخدمها بشكل متكرر، وتواريخ الميلاد، وأسماء زوجات الأصدقاء وأسماء أحفاد أخي؟ لسنوات عديدة، كان هناك عدد لا يُحصى من تفاصيل الحياة البسيطة ينجرف بعيدًا عن تيار وعيي من دون أن يترك أدنى أثر.. أضف إلى ذلك أنني كنتُ شاهدًا على خرف اثنين من أجدادي؛ مثلًا، جدتي لأمي التي كانت ترى الهنود الحمر يرقصون حول فراشها، بينما هي تحتضر متشبثة بالحياة العزيزة.. بكت وتعرقت وتبولت على نفسها خوفًا، وسط حيرة الراهبات، اللاتي قيدنها إلى الفراش وحاولن علاجها بالصلاة.. ومواقف مثل هذه

تجعلك مقتنعًا بأن مصير عقلك لن يكون مختلفًا في نهاية المطاف..

ولكن صديقي الباحث المتخصص طمأنني قائلًا:

- لو أنك تحاول تذكر اسم وتجد صعوبة في ذلك، فهذه علامة لا بأس بها؛ فالمهم هو قدرتك على البحث، وتمكنك من التوصل إلى المعلومة ولو بصعوبة.. أي أن هناك ملفًا قابعًا في عقلك بالفعل، أما في حالة ألزهايمر أو حالات الخرف عمومًا، فلا وجود لملف من الأصل..

كان هذا التشبيه مجديًا معي.. الآن صار عليَّ أن أقنع الجميع بأن الملف قد ضاع فعلًا..

ولكن التسرع ليس في مصلحتي..

من المعروف أن الخرف يتم تشخيصه بشكل عام في وقت متأخر لدى الأشخاص الذين لديهم ميل إلى النسيان.. ويجب أن أتعايش مع حقيقة أن دائرتي المقربة ترفض الشعور بالقلق أو حتى الدهشة من

تصرفاتي الحمقاء.. وبالطبع، قرأت الخوف في عيون أولادي عندما عدت إلى المنزل ومعي محمصة بدلًا من تورتة.. ولكن ما هي إلا دقائق حتى وجدتهم يتندرون ضاحكين على مواقف مماثلة ارتكبتها من قبل، ويحكون حكاية الكارافان مرة أخرى... وهي حكاية قادرة على إضحاكهم بشدة في كل مرة..

"أتتذكرون تعبيرات وجه بابا لحظتها؟"..

من المستحسن في هذه المرحلة الأولية أن أزيد تدريجيًّا من وتيرة النسيان.. هذه أفضل استراتيجية.. وعليَّ أن أعترف لك بأنني كنت أشعر بسعادة عجيبة، من ذلك النوع الذي لا يشعر به سوى الأطفال والفنانين السرياليين؛ تلك التسلية البسيطة المتمثلة في قلب الواقع رأسًا على عقب، وإخراج كل شيء من سياقه الروتيني.. وبدلًا من إخراج كيس القمامة، كنت أضع سلة الغسيل في الشارع.. (وأراقب غيظ زوجتي وهي تبحث عن السلة التي اختفت).. أطعم الخبز

الطازج للطيور، بينما أضع الفاسد على المائدة.. وأبلل جواربي وأضعها مع الأطباق القذرة في الغسالة.. (لا أنصحك بأن تفعل ذلك؛ فهي فعلة ينتج عنها صخب هائل، تعقبه صرخات الزوجة المكلومة وهي تحمل في يديها بقايا أطباق الصيني الفاخر، التي ورثتها عن عائلتها، محطمة إلى شظايا صغيرة، داخل غسالة الملابس).. وضعت شوربة الطماطم في ترمس القهوة، وأكياس الشاي في حوض المرحاض، ورفعت درجة السخان في فترات الظهيرة الصيفية.. حتى انتبه عقل "مونيك" الصغير أخيرًا إلى أنه قد يكون في الأمر ما يتجاوز حد النسيان والغفلة.. وحتى أصوِّر لك تلك اللحظة السعيدة بشكل أفضل، أحتاج إلى أن أمر سريعًا على إحدى الليالي الأولى لزواجنا.. كانت الليلة الثالثة، أو الرابعة، على ما أعتقد..

هي على وجه التحديد الليلة التي تجرأت فيها على إصدار رائحة كريهة تحت البطانية، في وجود المرأة التي جمعني بها الرب للتو،

ووعدتها بأن نكون معًا على الحلوة والمرة.. لم تكن رائحة مبتذلة.. أعني أنني لم أستعرض من خلالها مواهبي في إصدار الريح القوي.. ولم تكن قنبلة نتانة من النوع الذي يلحق ضررًا دائمًا بالشعب الهوائية في صدر التعيس الذي يشم رائحتها.. كلا البتة، مجرد إطلاق ريح عادي بلا رائحة قوية، من النوع الذي يخرج منك دون قصد وأنت تنفخ بالونة في الحديقة مثلًا.. من النوع الذي لا يمكن أن يكون سببًا في التفريق بين زوج وزوجته.. ومع ذلك، فقد غضبت زوجتي مني بشدة.. هل هي تعتقد الآن أنها تزوجت من مهووس همجي؟ شخص تربى في زريبة خنازير؟

عجزت عن تهدئتها.. قفزت "مونيك" من السرير، واستقلت دراجتها إلى منزل والديها، حيث قضت الليلتين التاليتين.. لم أعرف أبدًا ما أخبرت عائلتها به عني.. لا بدَّ أنها أخبرتهما شيئًا ما، لأنهما

بالطبع لم يتوقعا رؤية ابنتهما المتزوجة في منزلهما، وهي لا تزال في بداية شهر العسل..

"ماما.. انجديني.. تزوجت رجلًا يحب إطلاق الريح!".

عندما عادت - كما لو كانت آتية من فترة حجر صحي - وهي غاضبة لأنني لم أبذل أقل جهد لإعادتها؛ كان عليَّ أن أعدها بأنني لن أفعل مثل تلك الفعلة الشائنة بعد الآن.. في حضورها على الأقل.. وأنا أعلم الآن أن تراجعي في ذلك اليوم كان يعني إهدار فرصتي الأخيرة لفعل أي شيء له قيمة في حياتي.. فهي التي تركتني ورحلت إلى منزل أبويها.. وكان بمقدوري أن أطلقها ورأسي مرفوعة، لكنني وافقت على عودتها، لتبدأ حياتنا البائسة..

إلى أن كانت هذه اللحظة.. بداية عصر جديد!

وكانت حادثة إطلاق ريح.. وأؤكد لك أنني عوضتها بها عقود من الكبت والحرمان.. كانت مثل دانة مدفع، وكنت لأسعد أكثر لو أنها عرفت طريقها إلى السماء العالية.. ومن أسف أنه من غير الممكن للمرء أن ينال كل شيء في الحياة.

انتظرت منها توبيخًا لم يسبق له مثيل، وفورة غضب يسمعها كل من في الشارع، ويتسلى بها جميع جيراننا.. ولكن لا، لم يبدر منها أي شيء.. لم يكن هناك أي رد فعل من "مونيك" على السوناتا ذات الرائحة التي أطلقتها للتو.. لقد بكت.. في صمت، وعندما مسحت دموعها، عرفت أن مسرحيتي قد بدأت فعليًا.. لقد تبددت بداخلها آخر ذرة شك.. عرفت أنها عمًّا قريب لن تجد زوجًا يزعجها وتناقره.. ربما تعيش بقية حياتها في منزلها وتموت وحدها..

إن لم تشعر بالأسى على نفسها، فمتى سوف تشعر به إذًا؟

(5)

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان"..

(نكتة لا أكثر... كان جوزيف روث يهذي بها)..

ذكرى غريبة لقبلة ساخنة لم أحصل عليها أبدًا.

فتات خبز...

كان لي فيها عزاء أكبر ممَّا قدمه لي أي برليني طيب..

لا يزال ظهور سيارة الشرطة في شارع "أزاليا" مشهداً لافتًا يستحق الفرجة.. بل هو مشهد احتفالي في الحقيقة! ولا حاجة للسيارة إلى أن تطلق سرينتها الغاضبة المألوفة، فمجرد دخول السيارة إلى الشارع بهدوء كان كفيلًا بأن يستثير نباح الكلاب، ونميمة السكان خلف ستائر نوافذهم.. هناك حكاية جديدة تتشكل، والأفضل أن تكون فيها معاناة لآخرين.. يفرك محبو الفضائح أكفهم في لهفة، وهم على وشك أن يشهدوا دراما تليفزيونية على أرض الواقع.. يا لها من إثارة!

آخر مرة حضرت فيها الشرطة إلى هذا الحي كانت لتعريف عائلة "فاندرلست" القاطنة في المنزل رقم 54 بأن ابنتهم قد لقيت مصرعها، وهي في طريق عودتها من صالة الديسكو..

ولا يسعني أن أقول بأي يقين ما إذا كان الجيران يتوقعون أنباء بمثل هذه الإثارة، بينما يوقف شرطيان سيارتهما عند مدخل منزلنا،

ولكن اللافت هو كيف أن الكل في الشارع تحجج، على الرغم مـن أنهـا في ساعة متأخرة من الليل، بوجود شـاغل يدفعـه للخـروج مـن منزلـه، حتى يكون أقـرب بخطـوات إلى مـشهد اللغـز، ويعـرف سـبب حـضور أصحاب الزي الأزرق إلى المكان.. وبطرف عيني، لمحت "فليكس"، جارنا من المنزل 47، وهو يتظاهر بأنه يتفحص الجدار الخارجي لمنزلـه، قبـل أن يصاب بصدمة حياته وهو يراني جالسًا في سيارة الـشرطة، في المكـان المخصص لمن يتم إلقاء القبض علـيهم، في العـادة.. سـارع بالـدخول إلى منزله لينقل الخبر لعائلته.. شعرت أن أعين كل الجـيران مـسلطة عـليَّ.. وأكاد أسمع همهمات الافتراضات والاقتراحات والتشنيعات..

"الشرطة عند منزل كورديير؟"..

"أتمنى ألا يكون أمرًا سيئًا قد حدث".

"غريب... إنهم يصطحبون "ديزيريه" معهم"..

"ديزيريه؟ هل هو مصاب؟"..

"لا أظن هذا.. ربما فعل أمرًا ما.. ويريدون استجوابه".

"ديزيريه؟ ارتكب شيئًا؟ هذا العجوز المحترم؟ لا أظن هذا"..

لا بدَّ أن زوجتي تذكرت نكبة عائلة "فاندرلست"، وهي تراقب البريق الأزرق الصامت، بينما يقترب من منزلنا، منعكسًا على سطح المقلاة التي تمتلئ بالحساء البارد.. وربما لذلك هرعت شاحبة الوجه إلى الخارج، وهي خائفة من أن تسمع الخبر الذي من شأنه أن يحول الماضي إلى تلك الصورة التي تتخيلها..

تتساءل عمَّ يمكن أن يكون قد حدث لي؟ سوف أحكي لك باختصار.. كانت زوجتي تعرف أنني ذهبت بعد الغداء مباشرة إلى المدينة لشراء بعض الكتب الجديدة.. بالنسبة لـ"مونيك"، كان المول جنة على الأرض، ولكنها لا يمكن أن تصرف قرشًا في المكتبة.. وتلك واحدة من أربعة تريليونات الأشياء التي نختلف عليها فيما بيننا، لذا

لم يكن من المنطقي أن تأتي معي، ولـديَّ مطلـق الحريـة في الـذهاب وحدي وإشباع شغفي للقراءة..

- ذاهب لشراء كتب؟ مع نفسك، إذًا..

أقـول لـك إن نيتـي بالـذهاب إلى المكتبـة كانـت مفاجـأة وليـست مفاجأة في الوقت نفسه.. فأنا طالما كنت شـغوفًا بـالقراءة.. ولكـن مـن ناحيـة أخـرى تفاجـأت زوجتـي برغبتـي في شراء الكتـب الآن لأنهـا لم تستطع استيعاب هذا الاهتمام المتجدد بالكتب في الوقت نفـسه الـذي تتدهور فيه قدراتي العقلية.. وأظن أنها، للحظة، شكرت الظـروف التـي أرجأت معرفة الجميع ببوادر الخرف التي أصـابتني.. هـذه قـشة أمـل تتشبث بها، لتتمنـى أن تكـون مخطئـة بـشأن حقيقـة حـالتي، وأن مـا جرى كان مجرد نكسة مؤقتة.. كان عقلي في إجازة وعاد سالمًا، مستعدًا لأن ينشط من جديـد، ولا يـزال حريـصًا عـلى القـراءة، مثـل أي وقـت مضى..

وبالفعل، عُـدت إلى المنـزل مـع رزمـة كتـب.. أو بـالأحرى، كانـت الشرطة لطيفة للغاية وهي تقـوم بخدمـة توصـيلي وتوصـيل الكتـب مجانًا إلى المنزل.. لكن، لسوء حظ "مونيك"، لم يكن في عناوين الكتب ما يبعث في نفسها أي أمل في أن أكون محتفظًا بشيء من عقلي، على الأقل: "كيف أجري سباقات الماراثون؟"، و"الرب: للاسـتهلاك اليـومي"، و"ويلي سنوتر وعصابة السبعة وتسعين مقشة"، و"حديقـة جميلـة في كل الفصول"، و"مبادئ الإصلاحات المنزلية"، و"الكاسرولات الأصـلية".. وعشرة كتب أخرى مماثلة.. كلفتني جزءًا كبـيرًا مـن ميزانيـة الـشهر.. آه، نسيت أن أقول لك إنني لم أدفع ثمنها؛ سوى ابتسامة بلهاء..

بائع الكتب يعرفني؛ فربع الكتب القابعـة في أرفـف مكتبتنـا مـن مكتبته.. ولا شك في أنه يعرف أنواع الكتب الأدبية التي أحبها، لـذلك كان طبيعيًّا أن يشعر بالدهشة من اهتمامي المفاجئ بكتـب الطـبخ،

والأوريجامي، وأثاث الحدائق.. ولكنه لا يحظى كل يوم بزيارة من شخص مصاب بالخرف، علاوة على أن ظروف السوق صعبة على الجميع، بما في ذلك رجال الأعمال الصغار أمثاله، ولذلك انتهز الفرصة للتخلص من بضاعته الراكدة على حسابي وباعني أكثر الكتب لديه إثارةً للاشمئزاز.. وكل هذا أيضًا بابتسامة.. كان يعلم تمامًا أن عقلي غائب عني وأنا أشتري بضاعته.. والأكثر إثارة للاشمئزاز أن هذا الرجل الذي غض الطرف عن حالتي وطبيعة الكتب التي اخترتها لم يتورع أيضًا عن أن يضيف إلى الفاتورة سعرًا أكبر من السعر الحقيقي لكل ما اشتريته..

الصراحة أنني كنت على وشك أن أخلع عن وجهي القناع الذي ارتديته بمحض إرادتي، وأواجهه بخسته وسرقته وانعدام أخلاقه.. كنت لأفعلها حتى لمجرد أن أرى تعبيرات وجهه المصدومة لحظتها، والكوميديا التي سوف تتشكل في ذلك الموقف وأنا أخبره بأنني كنت

أتظاهر بالخرف حتى أسخر منه وحسب.. ولكنني أجبرت نفسي على التخلي عن هذه المتعة؛ التي أفترض أن أحدًا في الغالب لا يحظى بها سوى الصحفيين البارعين ورجال الشرطة السريين، ولكن إغراء الخروج من تقمص الشخصية كان قويًّا، وكدت أنهار أمام غوايته..

وضعت الكتب في عربة التسوق، ومن هناك ذهبت إلى متجر لبيع الملابس.. مكان عصري، به موسيقى صاخبة وديكورات صناعية.. راقبتني الفتاتان اللتان كانتا خلف الكاونتر بينما كنت أدخل المكان.. وكأنني كلب عجوز يدفع أمامه عربة تسوق.. كنت أكبر من يدخل إلى محلهما عمرًا.. هما على وشك الحصول على نكتة الأسبوع.. وهذه النكتة هي أنا، كما هو واضح.. كانتا بالفعل تبتسمان تحسبًا للحظة التي أكتشف فيها أنني قد دخلت المتجر الخطأ، وأدركت أن هذا ليس بالمكان المناسب لشراء قبعة أو عصا، ولكنه مكان لا يبيع سوى موضات الجينز.. وعندما بدأت في البحث بين أصناف مجموعة

الصيف، اقتربت مني إحداهما (لم تؤثر في فتحة الصدر المبالغ فيها، والحقيقة أنني وجدته منظرًا قبيحًا للغاية)، وبادرتني بنبرة كلام تميز كل البائعات أمثالها:

- هل يمكنني مساعدتك، سيدي؟ هل تبحث عن أي شيء على وجه التحديد؟

منحتها النظرة إياها، أو على الأقل هذا ما كنت آمل أنني أفعله، بينما أمسك بقطعة ملابس عشوائية وأسألها عمَّ إذا كان يمكنني تجربتها.. يمكن وصف قطعة القماش التي كانت في يدي بأنها قميص كاجوال، ولكنه كان بدون أكمام، وعليه كلمات زاعقة تلمِّح إلى الجنس والفراش.. وهكذا، اعتقدت الفتاة المغرورة أنني لا أفهم الإنجليزية..

بقيت زميلتها حيث كانت، ولكنها تابعت الحوار بأكمله، وكان من الصعب عليها كبت ضحكتها القبيحة.. ضحكة سرعان ما ستفور مثل محتويات إناء يغلي..

أخـذت معـي المزيـد مـن القمـصان وبنطلونـات الجينـز لغرفـة البروفة، وتعمدت أن تكون اختياراتي من النوع الجنـوني بالنـسبة لمـن هم في سني..

كانت الخطوة التالية مهمة وحاسـمة في الانتقـال بمـشروع حيـاتي الأخير إلى المستوى التالي..

تركـت ملابـسي داخـل غرفـة البروفـة، وخرجـت منهـا في ملابـس جعلتني أقرب إلى شخصية كرنفالية مثيرة للـشفقة.. لحظتهـا، لم يعـد من المجـدي أن تحـاول الفتـاتين منـع الـضحكات.. أخـذتا تـضحكان، وتضحكان، من دون توقف، ولدقائق.. وكان الضحك قبيحًا، كما كنـت أخشى.. من كلتيهما.. ولكنني سارعت بـالخروج مـن المحـل متظـاهرًا بشرود الذهن، وأنا لا أزال أرتـدي كـل تلـك الملابـس، متجـاهلًا تمامًـا نظام إنذار السرقة..

جذبت الكثير من الاهتمام في الشارع، وأنا أشبه بقرد هـارب مـن سيرك، ولكـن المنظـر المجنـون زاد إثـارة عنـدما هرعـت ورائي الفتـاة

السمراء، التي تزين بطنها بالأقراط، وهي تصرخ منبهة الناس إلى أن يلقوا القبض على اللص..

لا بأس، ولكن أملي خاب عندما اكتشفت أن أحدًا لا يحاول الإمساك بي.. ما الذي يدفع المواطنين إلى الاهتمام إذا كان متجر مليء بمثل هذه التوافه قد تعرض لسرقة بضعة قطع منه؟ إنها ليست خسارة كبيرة، أليس كذلك؟ كما أن أحدًا لا يعرفني، وربما أكون مسلحًا.. يتوجب عليك في هذا الجزء من العالم أن تبذل جهدًا أكبر لإيقاظ الشعور بالواجب المدني.. إنها معجزة بالتأكيد أنهم ما زالوا قادرين على بيع السيارات وأجهزة الإنذار الخاص بها، بينما أنت ترى كيف أن الناس أجمعوا على تجاهل أصوات الإنذار كلما انطلقت..

وقفت بلا حراك عند نهاية الشارع، حيث تم اعتقالي بهدوء ولكن بحزم من قبل اثنين من رجال الشرطة الجيدين.. كان من الواضح أنهما يجيدان ما يقومان به.. طلبا مني بأدب أن أرافقهما إلى المتجر

الذي تركته للتو، بينما كان العديد من المارة الفضوليين على جانبي الشارع يأملون في خاتمة أشد دراماتيكية، ولكن أملهم خاب..

وهكذا، وفي وقت لا يذكر، كنت أعود إلى ذات المتجر.. حتى لو لم يحدث وجودي هناك فارقًا كبيرًا.. ورباطة جأش احترافية كنت أظن أنها انقرضت بين البشرية، وبخ الشرطي الأكبر سنًا المراهقتين.. كان مصرًا على أن يلومهما بسبب قلة خبرتهما وهوسهما الشبابي، ولكنه لا يزال يجد صعوبة في تصديق أنه يمكن أن تكونا ساذجتين إلى حد أن تتعاملا مع رجل عجوز على أنه مجرم عادي.

قال لي الشرطي الآخر، بنبرة متعاطفة ودودة:

- لا بدَّ أنك ارتبكت لدقيقة..

ربما لديه جد مريض راقد في المنزل.. وموقف كهذا كفيل بأن يثير مشاعر التعاطف لديه:

- ملابسك في غرفة البروفة.. ما رأيـك في أن ترتـديها؟ سـوف تعيـد الآنستان هذه الملابس التي ترتديها إلى مكانها..

تفحصا بطاقة هويتي:

- شارع "أزاليا"؟ هل تعيش هناك؟

- أجل، أعتقد ذلك.. شارع "أزاليا".. أجل.. أجل.. هو كذلك.. بالتأكيد.

- هيَّا، نحن ذاهبان إلى هناك على أية حال سوف نوصلك.. أهـذه كتبك؟ هل اشتريتها أم خرجت بها وحسب؟

هكذا أوصلتني الشرطة إلى منزلي، لأعود إلى زوجتي، التي بعـد أن استوعبت الحكاية انطلقت تصب جـام غـضبها عـليَّ، لأننـي خرجـت ونسيت أن آخذ المحمول معي، وتركتها تنتظـرني حتـى بـرد الحـساء.. قال لها الشرطي:

- هل يمكننا الدخول لحظة، سيدتي؟ لا أعتقد أنه من المناسب أن نناقش هذا الأمر على الباب.

جرى الحوار بأكمله بين الشرطيين المتعاطفين وزوجتي (التي بدأت تنهار أكثر وأكثر) بنبرة هامسة مثالية، حتى إنني لم أسمع منه سوى كلمة "دكتور".. وحين اعتقدت أنها مصابة بالخرس والشلل التام، صاحت "مونيك دي بيتر":

- ألزهايمر؟ أتقول ألزهايمر؟ لو أنك وضعت كأس نبيذ أحمر على الطاولة أمامه، فسوف ترى أنه ليس خرفان.. لن ينسى أن يشربها، بكل تأكيد..

غادر الشرطيان.. ويأس الجيران في مزيد من الفرجة.. وأُسدلت الستائر.

أكثر ما أعجبني في الأداء الذي قدمته هو صعوبة الدور الذي كنت

أقوم به.. أن أمارس الخرف على أرض الواقع؛ وذلك الشعور بـأن هنـاك مهمة عليَّ القيام بها.. كان عليَّ أن أتصرف كما لو كنت أبحث عن شيء لن يمكنني أن أتعرف عليه حتى إذا وضعت يدي عليـه.. أحببـت هـذا الانفصال عن واقعنا اليومي القبـيح.. ووجـدت فيـه الكثـير مـن المـرح، واستمر بي الحالي هكذا في بقية الأيام، وأنـا أدرك أن "مونيـك دي بيـتر" صارت أقرب أكثر فأكثر إلى الانهيار العصبي التام..

إن أهم سمة في مريض ألزهايمر هي الهرب.. حاجة ماسة وعاجلة إلى الهرب.. وكانت هناك محطة باص في حديقة "وينترلايـت".. وهـي بالطبع ضمن ديكور وتصميم المنتزه.. فلن يتوقـف أي بـاص حقيقـي هناك، ولكنها نسخة مثالية من أي محطة؛ المقاعد والمظـلات، ولافتـة كاملة عليها جدول زمنـي محـدد بدقـة وإشـعارات متنوعـة للركـاب، تجعل المنظر واقعيًّا تمامًا؛ "أعمال طرق في شـارع "هـاي" قـد تُـسبب تأخيرًا في مواعيد الباص.. لذلك، نحن نعتذر عن أي إزعـاج"... واقعيـة

تامة.. بل إن هناك طريقًا قصيرة، لا تزيد على سبعة أمتار، ممهدة بأسفلت عالي الجودة، من النوع الذي يحلم به الدراجون، ولافتة لبلدة وهمية، تمثل أيضًا وجهة الباص رقم 77.. ومنذ إنشاء هذه المحطة الوهمية التي لا تقود إلى أي مكان، لم يعد عمال الرعاية في "وينترلايت" يهدرون الكثير من الوقت في البحث عن المفقودين من نزلاء الدار.. فعندما يشعر عجوز برغبة في الهرب، فإنه يقف في موقف الباص ويجلس لينتظر الباص القادم.. وبعد فترة، يظهر عامل، ليقول له: "هل تنتظر رقم 77؟ إنه متأخر بسبب عطل أو شيء ما.. كما أنهم يحفرون شبكات الصرف الصحي في شارع "هاي"، إذا لم أكن مخطئًا.. ما رأيك في أن تدخل لخمس دقائق؟ هيَّا الآن، لتتناول فنجان قهوة لطيفًا، بينما تنتظر".

يشعر الأشخاص المصابون بالخرف بأن خطط سفرهم تؤخذ على محمل الجد، ولا يجبرهم أحد على الشعور بالمزيد من الارتباك، وطاقم

التمريض ليس بحاجة إلى الإخلال بالروتين المرهق بـالاهتمام بمواعيـد الدواء وتغيير الحفاضات لأجل جولة أخرى من البحث عن كبار السن الضائعين..

أما منشأ فكرة محطة الباص فهي ألمانيا، وقـد أثبـت الاسـتثمار في هذه الفكرة أنه يستحق كل قرش.. وكل شخص خضع لتلـك الخدعـة عـاد بالفعـل إلى المنـزل، وكلـه حـماس للاسـتمتاع بالـدفء والقهـوة الموعودة، حتى إنه ينسى تمامًـا أنـه كـان مـصممًا عـلى الفـرار، وكـان جالسًا في انتظار باص الحرية..

ولكن المحطة، كما أخبرتك، في دار "وينترلايت"، ويتوجـب عـليَّ أن أدخلها مريضًا أولًا..

تعلمت من قراءاتي السرية عن مرض ألزهايمر التركيز على بعض النواحي الرئيـسية.. ومنهـا تقلـب المـزاج.. تجلـس في سـاعة هادئًـا مكتئبًا، وفي التالية تضحك وتقهقه ساخرًا من منظر شـعر زوجتـك.. (أو من نظارة على الموضة اشترتها مؤخرا لإقنـاع الآخـرين، ونفـسها

قبلهم، أنها حريصة على مواكبة الموضة.. نظارة تحمل علامة تجارية شهيرة على الإطار.. و"مونيك" مهووسة بالأسماء التجارية الرنانة.. أو المنتجات التي تحمل وصف "أصيلة" أو "أصلية").

وكان عليَّ أن أتظاهر أيضًا بالمعاناة من اضطراب النوم، إذا كنت أرغب في دخول المصحة.. وهكذا كنت أستيقظ كزهرة أقحوان نشطة وقت يكون الليل في أحلك ساعاته، وأصنع لنفسي جبلًا من السندويتشات، قبل أن آخذ حمامًا منعشًا، وأنا أغني، وأدلك جسدي بكميات وافرة من الكريم الواقي من الشمس، ثم أجلس أمام التليفزيون..

وكذلك لا بدَّ أن يكون إحساسي بالزمان والمكان مشوشًا، وأن أخرج في تمشيات طويلة وبصورة متكررة..

ومن أسف أنني كنت مجبرًا على التقليل من تلك الرحلات الطويلة.. لقد صارت "مونيك" أكثر حرجًا من أفعالي يومًا بعد يوم، وتفزع من فكرة أن أتحدث وأنا بهذه الحال مع شخص يعرفنا.. زواجها من

مصاب بالخرف إهانة لا تطيقها.. قد يـصيب هـذا المـرض أي فـرد في أحسن العائلات، ولكن لا يمكن أن يصيب أي فرد من عائلتنـا.. هكـذا كانت تبقيني بالـداخل قـدر المـستطاع، تحـت الإقامـة الجبريـة، مـع إغلاق الباب الرئيسي بالمفتاح..

كانت تتعامل مع تساؤلات الجيران وكأنها إهانات لا بدَّ لها من أن تواجهها بأعذار، على الرغم من عدم منطقية تلك الأعذار:

- أوه، "ديزيري" بخير.. أشكرك.. ولمَ تسأل؟ إنه متعب قليلًا.. فكـر في ضرورة أن يقوم بفهرسة كل كتبه.. وأنت تعرف "ديزيري" وكتبـه.. إنه متزوج من تلك الكتب، وأنا مجـرد عـشيقة لـه.. تعـرف قـصدي.. صار يقضي وقتًا طويلًا في مكتبته، وهـو مـا يتعبـه.. حتـى إنـه أهمـل الكراث الذي زرعه في الحديقـة.. منهـك، هكـذا أصـبح حالـه.. يفعـل أمورًا صعبة بالنسبة لشخص على المعـاش.. كـان المعـاش بالنـسبة لـه بمثابة ثقب أسود.. ربما يشتاق لوظيفته السابقة؟

ولكن الجيران أذكياء.. خاصة أنهم سبق وأن رأوني أمشي أمام منازلهم مرتديًا رأس أباجورة.

- أهلًا، "ديزيري".. قبعة جديدة؟

- طبعًا!

- جميلة..

- لا بدَّ وأن أكون في أحلى صورة عندما تحضر جدتي..

إقامة جبرية إذًا.. ولكن طالما أنك في حالة تأهب، فلا بدَّ أن تأتيك الفرصة عاجلًا أم آجلًا، وفي أحد الأيام عندما دخلت "مونيك" إلى الحديقة الخلفية ومعها سلة الغسيل، تمكنت من التسلل إلى الخارج دون أن تنتبه.. لم يكن لديَّ وقت للتفكير في خطة أو ارتداء الحذاء المناسب.. كنت أرتدي "شبشب وبنطلون برمودا وقميص من دون أكمام أحمر"، ومن دون سترة فوقه، وخرجت إلى الشارع أمشي وكأنني أعرف إلى أين

أذهب.. ولكن لم تكن لدي أي خطة.. يهديني أنفي وما يشمه.. رائع.. الشيء الوحيد الذي منعني من الاستمتاع بمغامرتي إلى أقصى حد هو ذلك الشعور بالشفقة على نفسي، والذي تغلب عليَّ تدريجيًّا، حينما أدركت أنني قضيت سنين طويلة أخشى أن أقوم بما أقوم به الآن..

تجنبت الطرق الرئيسية المزدحمة وعرجت في شوارع لا تعرفها سوى "مونيك".. ملاذ أخير.. وحالما اقتربت من المحطة، كنت أعرف ما سأفعله: سأركب القطار.. أول قطار صادفته.. لا تهمني وجهته.. ولن أدفع.. لقد صرت معتادًا على الإجرام الآن.. وصار لديَّ أصدقاء في الشرطة.

تبين أن أول قطار ذاهب إلى "ليج"، وهذا يناسبني.. فخلال خدمتي العسكرية، تم نقلي إلى المستشفى العسكري في "ليج".. وهي معلومة تبدو أكثر دراماتيكية ممَّا هي عليه في الحقيقة.. كان التواء بسيطًا.. وتورم كاحلي، لا شيء أكثر من ذلك.. ولكن يبدو أن الفريق

الطبي العسكري كان بحاجة إلى مصابين ليتدرب عليهم، لذا أدخلوني المستشفى كإجراء وقائي.. وإذا كان هذا يعني فترة راحة مؤقتة من التدريبات العسكرية الحمقاء كل صباح، فلا يسعني إلا أن أكون شاكرًا لقرار الرقيب.. قضيت أربعة أيام في "ليج" في غرفة منفردة، وارتحت من رائحة الثكنات.. ولأسباب رمزية بحتة، وضعوا ميزان حرارة تحت إبطي وقاسوا ضغط الدم على فترات منتظمة.. وعشت حالة من الاسترخاء، بعيدًا عن اللغة البذيئة والغباء الخشن الذي يبرع رجال وحدتي فيهما تمامًا.. لن أحضر تدريبات ضرب النار، ولا دروس نظرية مرعبة عن الخطر النووي.. إنها وبكل بساطة أربعة أيام من الراحة و.. القراءة! أشاهد من غرفتي الوادي ومدينة لا أعرفها.. لم أمشِ في شوارعها.. لم أفعل سوى السير من المستشفى إلى محطة القطار، وهو ما فعلته في اليوم الذي أعلن فيه كبير الأطباء أنني تعافيت وأصبحت صحيح الجسد بما يكفي لأعود

لاستئناف دفاعي عن بلادي، وأعادني إلى الثكنات، ولكن علاقتي بالمدينة ومنازلها وأسقفها صارت ودودة متينة خلال تلك الأيام الأربعة، وقررت العودة إليها في وقت ما بعد أن أكمل خدمتي العسكرية.. ولأنني شاب ميلودرامي، فقد أقنعت نفسي بأن لدى هذه المدينة ما ترغب في قوله لي.

لا بدَّ أنني نسيت الوعد، واليوم أتذكره فجأة.. تبين لي أن وعدي لنفسي بالعودة مرة إلى تلك المدينة المتحمسة على ضفاف نهر "ميوز" محض كلام فارغ.. إن هذا القطار متأخرٌ ولكنه يمثل على الأقل شيئًا من التعويض.. ما لم أكن، بالطبع، واجهت مفتش القطار الذي يفيض بالكبرياء المهني، الذي يجعله يزهو بقدرته على إرشاد عجوز بريء لا يحمل تذكرة..

لكنني لم أصادف أحدًا في ذلك اليوم، ولا حتى المفتش، وبعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من التجوال في شارع "أزاليا" مرتديًا

الشبشب، كنت أقف على رصيف محطة "جار لييج جوليمين"، التي لا تشبه بأي حال من الأحوال تلك المحطة التي غادرتها وأنا بالزي العسكري.. لقد تحولت إلى لؤلؤة معمارية حديثة، قرأت عنها من قبل، ولكنني رأيتها الآن فقط بأم عيني.. لو كان الرب قطارًا، فمن المؤكد أن هذه المحطة كاتدرائيته..

يا لها من بداية واعدة للم الشمل بالمدينة..

وربما هذا هو السبب الذي دفعني إلى أن أغير الخطة فجأة، حتى أتأكد من أنني لم أخلف ذاك الوعد.. لمحت القطار فائق السرعة المتجه إلى فرانكفورت.. إن وجود خطط ليس بالفكرة الجيدة على أي حال، وربما يحبط مشروع ألزهايمر من الأساس.. هكذا صرت على متن قطار فرانكفورت! في هذه المرة، لم أنتظر مفتش القطار طويلًا.. كان موقفًا لا مفر منه؛ فأنا على متن قطار دولي، وفي مقصورة الدرجة الأولى! وسرعان

ما سيعرف الجميع هذا المساء أن الشرطة قامت مرة أخرى بتوصيل الرجل التائه المرتبك نفسه إلى منزله في شارع "أزاليا"..

وعلى الرغم من أن الخطة قد نجحت، فإنه لم يقدر لي أن أزور فرانكفورت.

(6)

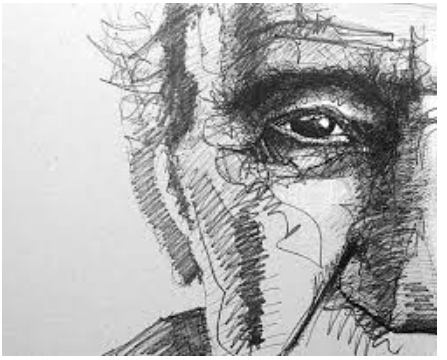

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان"..

(نكتة لا أكثر... كان جوزيف روث يهذي بها)..

ذكرى غريبة لقبلة ساخنة لم أحصل عليها أبدًا.

فتات خبز..

كان فيها عزاء أكبر مما قدمه لي أي برليني طيب.. أبيات من قصيدة "العمة المجنونة".

ها قد فعلتها بنجاح ساحق! لقد رسبت في امتحان "فلوشتاين"، ذلك الذي يخشاه العديد من مرضى ألزهايمر.. ارتحت كثيرًا بعد أن منعت نفسي بجهد جهيد من التقافز بهجةً وأنا في العيادة.. ومن المؤكد ألا توجد جائزة أرفع في نظر أي ممثل من أن ينال رسميًّا لقب مريض ألزهايمر، بينما هو أبعد ما يكون عن المرض! أن يقوم خبير متخصص بإعلانه فاقدًا للأهلية العقلية ويبدأ في إتمام المستندات الرسمية التي سوف تعني سحب رخصة القيادة وبطاقات البنك مني! وأن يقدم لي مستندات موقعة ومختومة تعلن أنني لا يمكن أن أدلي بصوتي في أي انتخابات مقبلة! بينما يناول زوجتي أوراقًا أخرى بها معلومات عن المرض وأخرى عن أفضل دور الرعاية المتخصصة..

هذه خطوة تستحق زجاجة شامبانيا كاملة!

أما في المنزل، فقد بدأت زوجتي وأولادي يتحدثون عني في وجودي كما لو لم أكن جالسًا بينهم.. لم يعد هناك أي فارق بيني وبين الكلب

القابع في غرفة المعيشة.. كانت "شارلوت" قد أصرت على أخذي إلى الدكتور، وعمدت في ذلك إلى استخدام كل الحيل لإقناع أمها العزيزة، فمهما كانت تصرفاتي شاذة، فإن تناول موزة بقشرها لا يمكن اعتباره بأي حال دلالة على سلامة عقلي..

أخبرتها أنني صرت حدوتة الناس في شارع "أزاليا"، وأنهم يعتقدون أنها تحرم زوجها من رعاية هو في أمس الحاجة إليها؟

كانت حجج ابنتي وافية.. وبعد أسبوع كنت وزوجتي في عيادة الدكتورة "فانسليمبوت"، المتخصصة في تخاريف العقل البشري..

يصعب عليَّ أن أحدد لك أي الموقفين كان أصعب؛ اجتياز امتحانات التأهيل لأكون أمين مكتبة، أم الرسوب المتعمد بعدها نصف قرن في امتحان تقييم الحالة العقلية للمسنين، ولكنني وجدت الأخير مرهقًا وصعبًا بالفعل.. كيف لي أن أخدع العلم، بحق السماء؟ كيف لي أن أقنع الدكتورة بأنني أشبه بسفينة هائمة على وجهها فوق صفحة المحيط؟

على أن الموقف برمته كان أكثر سهولة مما كنت أتخيل.. ببساطة لأن العلم لم يكن متقدمًا إلى تلك الدرجة التي تصورتها.. في كوابيسي، كنت أرى نفسي في المستشفى ومختلف أنواع الخوذات مثبتة على جمجمتي بالأسلاك والدبابيس؛ معجزات التقدم العلمي التي من شأنها أن تفرغ أسرار دماغي فوق الطاولة مثل كيس اللب.. كما أن زوجتي طلبت فحصًا أشد تعقيدًا من أي إجراء تقليدي تم تنفيذه حتى الآن.. لم تكن لترضى بأقل من فحص أشعة للدماغ.. ومع ذلك، وكما أكدت لنا الدكتور؛ فقد كان هناك الكثير من الأشياء التي يمكن لفحص الأشعة أن يظهرها، ولكن ليس من بينها الخرف العقلي! ذلك فحص يتعلق بالكشف عن الأورام، تخثر الدم، أو قصور في أداء الغدة، ولكنه لا يفيد أبدًا في حالة مثل ألزهايمر، فهي لا تزال مستعصية على الأجهزة الحديثة..

ساعدني أن تتلفظ الدكتورة "فانسليمبوت" بعبارة مثل "قصور

في أداء الغدة".. "هايبوثيريوسيس".. وإلا تشككت "مونيك" في قدراتها وخبراتها، وطلبت منها أن تخرج لها الـشهادات حتـى تراهـا ويطمـئن قلبها..

ومع ذلك، وجدتها تطلب من الدكتورة سحب عينة دم مني ليـتم فحصها، أو أخذ عينة من جلدي لتوضع تحت الميكروسكوب!

- من المحتمل، سيدة "دي بيتر"، أن نصبح أكثر تقدمًا في الغـد، أو في الأسبوع المقبل.. هناك مـن يعمـل بكـل جهـده في تحقيـق ذلـك.. ولكن في هذه اللحظة لـن يكـون تحليـل الـدم أو أي نـوع آخـر مـن التحليلات أو الأشعة قادرًا على تقديم تشخيص واضح لهـذه الحالـة.. ليس في أيدينا سوى نتيجة هذا الاختبار النفسي العقلي..

- هذا الاختبار التافه؟

- إن كان يعجبك هذا!

الحق أنه كان تافهًا بمعنى الكلمة.. طفولي.. كان عليَّ أن أجيب على بعض الأسئلة السخيفة؛ ما تاريخ اليوم؟ في أي فصل نحن؟ أي بلد هذا؟ ثم كان عليَّ أن أتذكر بعض الكلمات الغبية: شجرة.. جزرة.. مصباح.. رددت الدكتورة جملًا سهلة، وطلبت مني أن أكررها، ثم طلبت مني أن أتهجى كلمة "العالم" بالعكس.. وكانت إحدى المهام المطلوبة مني مكتوبة على ورقة.. "اطوِ هذه الورقة ودسها تحت رجل الكرسي".. وكانت بعض الاختبارات سهلة لدرجة أنني خشيت أن أخطئ وأنفذها على نحو صحيح عن دون قصد مني.. توخيت الحرص حتى لا أنكشف، وتدرك الدكتورة أنني أتعمد الحصول على أدنى الدرجات.. لم أجد شيئًا صعبًا بحق إلا في الاختبار الأخير، الذي طلب مني نسخ صورة لشكلين خماسيين متلاصقين..

17 من 30...

- انظري! لقد نجح!

صاحت زوجتي بنبرة صوت لا يضاهيها في بشاعتها إلا صوت أزيـز ثلاجتنا..

- احم... لا يمكنكِ القول بكل دقة بأنـه قـد نجـح.. صـحيح أن 17 من 30 تعني أكثر من خمسين في المئة.. ولكنه ليس امتحـان قبـول في الجامعة، بل هذه النتيجـة تعنـي أن قدراتـه العقليـة منهـارة تمامًـا.. الحقيقة أنني يمكـن أن أوصي بمـا هـو أكـثر مـن إلحاقـه بـدار رعايـة متخصصة.. ولكن عليكِ القيام بذلك في أسرع وقت ممكن..

منحتنـا الـدكتورة ابتـسامة ودودة، وأنـا أحـرص عـلى ألا تخـتلج عيناي، فلربما حدست فرحتي بنتيجة تشخيصها لحالتي..

- ولكن يا دكتورة.. هذا مستحيل.. لا بدَّ أن الأمـر اخـتلط عليـكِ.. زوجي كان أمين مكتبة.. ويتحدث اللاتينية بطلاقة، حتى مع عـصافير الحديقة.. وكانت الدكتوراه التي نالها عن "إيراسـموس".. لا يمكـن أن يكون شخص مثله مصا...

قاطعتها قائلة:

- أرجوكِ سيدة "دي بيتر"، هذا المرض لا يهتم بنوعية المخ الذي يهاجمه.. ولا يفرق بين ذكي وغبي.. وزوجك بحاجة إلى المساعدة.. عليكِ أن تفهمي هذا.. إنه شارد الذهن، بعد أن تاه عقله.. يشعر بالوحدة والخوف.. وقد يسبب له ذلك الشعور بالضيق والخنق، وربما يكتسب سلوكيات عدائية.. قد يتهجم عليكِ.. وإن فعل فعندئذ لن يمكن لشيء إيقافه، تأكدي من ذلك...

- أوه.. كلا! أوه.. يا ربي!

- أنا بالطبع أتفهم جيدًا انزعاجك عند سماع مثل هذا التشخيص، ولكنني فوجئت قليلًا لدهشتك منه وكأنك لم تتوقعيه، بالنظر إلى مدى تقدم حالته المرضية بالفعل، لكنه يحتاج إلى دعمنا الآن.. لم يعد بوسعه أن يعتني بنفسه بعد الآن، لذا أرجو أن تبذلي الجهد وأن تؤثريه على نفسك.. نحن هنا من أجله!

التفتت الدكتورة إلى ابنتي، وأكملت حديثها معها..

إنها لحظات تاريخية.. وكانت تعبيرات وجه "مونيك" خالدة، وقد تهدلت شفتها السفلى وكأن هناك خطافًا من فولاذ يسحبها..

وفي السيارة، مرت علينا فترة من الصمت المطبق، ولكن شخصية "مونيك" لا يمكن أن تحتمل ثقل الصمت ووطأته، وكان من الطبيعي أن تكون أول من تستسلم للكلام:

- إنها ليست سوى حمقاء! كم قضينا من الوقت معها؟ نصف الساعة؟ أربعون دقيقة؟ لم تفعل سوى أنها طرحت مجموعة من الأسئلة البلهاء على أبيكِ قبل أن تخبرنا بأنه فقد عقله، ثم طلبت أجرها... 135 يورو، وشكرًا وباي باي! وماذا نفعل نحن؟ ليس أمامنا سوى أن نطرق الرأس ونرحل مبتسمين.. آسفة، ولكني لو كنت أعرف أن الأمر سهلًا هكذا، ما كنت ضيعت عمري في شغل البيت؛ كنت فتحت عيادة أفضل لي..

تجاهلت "شارلوت" أمها، وتظاهرت بأنها تركز على القيادة خلال ساعة الذروة المسائية.. وبعد قليل، سألتني:

- بابا، هل أنت بخير؟

وضعت يدها على ركبتي للحظة أثناء ذلك.

كان من العدل أن أطمئنها أني بخير.. بخير جدًّا.. مع أني ضائع العقل رسميًّا الآن.. وسرعان ما أصبح صيدًا حلوًا لأي صيدلي، بالنظر إلى كمية "الميمانتين" التي سوف أتعاطاها.. سألتها:

- كيف كان الامتحان؟ نجحت؟

عاد الصمت مجددًا، أقصر ولكن أقل راحة عن ذي قبل..

أجابتني بعينين دامعتين:

- أجل.. نجحت.

- ما الدرجة؟

- امتياز!

- بجد؟

- بجد..

- طيب.. لا بدَّ وأن أعزمكم على شيء حلو.. أين نذهب؟

كان مطعم "براسييري فيفالدي" مكانًا مناسبًا لاحتفالي بألزهايمر، حتى ولو كان من الصعب عليهما إخباري بذلك..

وصلت "شارلوت" إلى المكان بصعوبة، وبينما كانت تركن السيارة، صحت:

- هاه؟ هل سنأكل في الخارج اليوم؟ فكرة ممتازة!

كنت أصيح مثل صبي صغير..

جلسنا إلى طاولة تجاور حوض أسماك، بها نموذج سفينة غارقة، وكأنها تذكر الأسماك بأصلها، وصندوق كنز مفتوح تتصاعد منه

فقاعات الهواء..

قالت "مونيك"، بتعبيرات وجه غاضبة:

- ما هذا الهراء؟ نهدر المال في مطعم، ومعنا شخص نصف ميت؟

لذلك بادرتها "شارلوت"، وهي تتقمص شخصية الدكتورة الصارمة:

- اسمعي، ماما، إذا كنتِ تريـدين أن تحرمـي بابـا مـن أي متعـة، فمن الأفضل أن تفعـلي ذلـك الآن، لأنـكِ عـلى حـق، فقريبًـا سـيكون الأوان قد فات!

إنها خروجة عائلية بسيطة..

سألونا إن كنا نريد مشروبات قبل الطعام.. طلبت كأس شـامبانيا، وكذلك ابنتي، بينما فضلت قرينتي المصون تناول كوب ماء..

- ماء.. كوب ماء من الحنفية.

ما هي إلا أيام قليلة وأكون في دار رعاية، بينما تبقى هي وحيدة بائسة في المنزل.. شعرت أنها قررت أن تبدأ في معايشة هذا الدور الجديد من الآن.. شعرت بمتعة وأنا أصيح:

- عيد ميلاد سعيد، ماما!

سايرتني "شارلوت":

- عيد ميلاد سعيد، ماما! عقبال مئة عام!

وكالمعتاد، عجزت "شارلوت" عن اختيار أي شيء من المنيو، وطلبت أن يجهز لها الشيف أي طبق نباتي.. عندئذ، تصاعد حنق أمها:

- ألا يمكن أن تتصرفي مثل بقية البشر ولو مرة واحدة في حياتك؟ لن يقتلك أن تتناولي قطعة لحم صغيرة!

أظن أن "شارلوت" كانت في السادسة عشر من عمرها، يوم أن أفسدت علينا وجبة عائلية بإعلانها أنها لا تستطيع أن تأكل اللحم

بسبب ما تتعرض له الحيوانات من مذابح جماعية وتعذيب في المجازر.. في تلك الأيام، كنا بالكاد نسمع عن النباتيين.. كنت قد عرفت من خلال عملي أن الشاعر "شيلي" والكاتب "برنارد شو" لم يكونا مغرمين بأكل اللحوم، ولكن ذلك كان في القرن التاسع عشر، وكان رأياهما يعدا رأيين شاذين في ذلك الحين.. من المؤكد أننا رأينا بعض المحتجات العاريات والمعترضات على استخدام فراء الحيوانات.. وكان من وجهة نظرنا ونحن نجلس على الأريكة أن ما يقدمن عليه لا ينطوي على الكثير من التضحية بالنظر إلى أنثوتهن المحدودة.. ولكن النباتيين لم يظهروا على أيامنا، ولم تكن هذه الموضة قد ظهرت بعد وسط نجمات ونجوم السينما.. بقدر ما كنا نعرف، على الأقل.. أرجعنا عناد ابنتنا إلى طبيعة سنها، وتفهمنا موقفها من هذا المنطلق، ولكننا كنا مثل أي أبوين طبيعيين؛ مهتمين ولكن لا ندري بالظبط ما يهم أطفالنا.. تربيت أنا و"مونيك" على أن تناول اللحم يحافظ على

صحتنا وقوتنا، وأن في تناول شرائح اللحم يقي من الأمراض؛ والآن نحن نتعامل مع طفلة تنكر أي فوائد للحم البقري.. أما "هوجو" فكان على النقيض منها.. قالوا لنا إن "شارلوت" تعاني فقدان الشهية.. وإنه جيل مدلل.. وهناك من قال إنها موضة وستمضي لحالها.. وخشينا من أن تصاب "شارلوت" بفقر الدم ونقص الفيتامين، وأنها ستزور المستشفيات قريبًا..

وهنا كان دوري كأب، وأخشى أن "شارلوت" لن تنسى أبدًا هذا المشهد بالتحديد، لكنني كنت في ذاك الوقت عازمًا على إجبارها على تناول قطعة من اللحم؛ وكانت صدر ديك رومي، وأنا أصيح فيها أني أفضل الموت على أن أراها تدمر صحتها بتمردها المراهق هذا..

هي لم تمس قطعة الديك الرومي، وأنا لم أسقط ميتًا.. انتصرت "شارلوت" في هذه المعركة، ومنذ ذلك الحين قررنا تركها لحالها في كل مرة نجتمع فيها على طعام.. كانت تكتفي بطبق كروكيت الجبن

في حين يتغنى الآخرون من حولها بجمال وطيب مذاق شريحة البط.. وفي كل مطعم، كان الشيف يظن أنه يخدمها بتقديم وعاء هائل من الخس، بينما كانت تتحمل في صبر أسئلة مثل.. "هل يُسمح لك بتناول السمك؟" أو "هل تعتبرين أم الخلول من الحيوانات أيضًا؟" وهكذا أصبحت منعزلة تمامًا عن حفلات الشواء التي أقمناها في حديقتنا، وكانت عديدة..

استمر الصراع بينها وبين أمها في مطعم "براسييري فيفالدي"، وانتهى بانتصار الابنة كالمعتاد.. ولكن الجرسون أحضر لها طبقًا من "المسقعة" المصنوع من بديل اللحم، وهكذا كان الطبق هدية عظيمة، مقارنة بكروكيت الجبن.. قالت "مونيك" للجرسون الشاب:

- أنا لست بتلك الشخصية الصعبة في تفضيلاتها.. يكفيني طبق كرات لحم مع صوص الطماطم.. هكذا ببساطة..

وبما أنني قد صرتُ تابعًا ولست متبوعًا، فقد طلبت لي أيضًا طبقي المفضل: شريحة اللحم مع صوص الفلفل، وبطاطس شيبسي، ملح زيادة.. وجدتني أصيح فيها:

- لا... أنا أيضًا أريد "موساكا" نباتية..

- لا بأس.. اثنان "موساكا".. شيء آخر؟

- أمم.. كأس شامبانيا آخر.. أجل وابنتي كذلك.. اثنان شامبانيا! وكوب ماء من الحنفية لزوجتي.. شكرًا..

إن كنت لا أزال أرغب في أن أموت في بيتي، فإن السرعة مهمة، لأنه حان أخيرًا اليوم الذي طال انتظاره؛ يوم أن أقيم في دار للمسنين، دار "وينترلايت"، كما سوف أكتشف بعد بضع ساعات.. نحن في يوم السبت.. اليوم الذي خصصه الناس لتنظيف النوافذ، غسل السيارات،

التسوق، اصطحاب الأطفال إلى الأندية الرياضية، وإخراج القمامة.. لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لي..

كان "هوجو" قد توقف منذ فترة طويلة عن حضور عيد ميلاد والده، باعتباره واجبًا يكرم به بيت العائلة بحضوره.. هو لا يتحمس للمناسبات الموسمية التي يبالغ الناس الاحتفاء بها؛ مثل السنة الجديدة وعيد الأم والكريسماس، وهو أمر أحسده عليه كثيرًا.. كان شخصية غير عاطفية تمامًا، وحياته مزدحمة وليس فيها سوى مساحة ضئيلة لتورتة ودردشة مع سبب وجوده في هذه الدنيا.. وجدت "مونيك" في هذه الحقيقة فرصة لممارسة طقوسها الميلودرامية، متهمة ابنها بالجحود، الأمر الذي لم ينتج عنه سوى قراره بألا يحضر أبدًا في المرة المقبلة..

لكنه اليوم هنا.. بذقن غير حليق تمامًا.. ولكنه هنا..

ربما توسلت إليه أمه، أو أخته، وخاطبت فيه صفاته الذكورية

ومسؤولياته كرجل.. وعلى الرغم من أنه لم يعد ذلك الشاب مفتول العضلات، بل كهل في الأربعين يبحث عن الوسادة المناسبة ليهزم بها ذلك اللغد في رقبته عند النوم، فإنه لا يزال مهمًا للعائلة في أمور مثل تفكيك دولاب ملابس صغير وإعادة تركيبه في مكان جديد.. وكان هناك أيضًا تليفزيون قديم يجب أن ينزل من الصندرة، وسرير مفرد في غرفة الضيوف سيصحبني إلى حيث أنا ذاهب.. تلك أعمال الرجال!

لم أعرف من واتته الفكرة، لكن من الواضح أنهم قرروا أن تكون وجبة الإفطار الأخيرة لي في المنزل مناسبة عائلية لنا جميعًا.. الأولاد، و"مونيك"، وأنا.. بدون وجود أقارب مزعجين.. نحن الأربعة فقط..

وصلت "شارلوت" وعلى عينيها آثار البكاء.. كانت تحمل كيسًا من المخبوزات الطازجة التي لا تزال دافئة بعض الشيء.. الجميع في الأسرة يعرفون ضعفي أمام كريمة الفانيليا.. قبل أن يأخذ مكانه في الكرسي الكهربائي، طلب السفاح الشهير "تيد بندي" طبق شرائح اللحم

والبيض.. "فيكتور فيجور" (آخر من أعدمه العم سام) طلب زيتونًا؛ أما أنا فبالتأكيد لم يكن لدي أي اعتراضات على وجبتي الأخيرة.. ولكني أحب المخبوزات المحشوة كريمة (وليس مربى).. أجدها لذيذة للغاية.. ولكن "مونيك" كانت تمنعها عني بقدر ما يمكنها:

- ألست بدينًا كفاية؟ لقد انسدت شراييني بالفعل بعد كل هذا النبيذ الذي تشربه!

لكنها بقيت صامتة هذه المرة..

هل تصدق شكوكي في أنها تناولت بعض المهدئات؟

أعد "هوجو" عصير البرتقال، وأستطيع أن أجزم بأن هذه هي أول مرة يقوم فيها بذلك في حياته.. في خلفية المشهد كونشيرتو التشيلو لـ"جيوسيبي تارتيني"، وهي مقطوعة لم أكن أتوقع أن أسمعها مرة أخرى حتى موعد جنازتي.. زوجتي لا تحبها؛ فهي لا تحب "تارتيني"

على الإطلاق.. تمامًا كما لا يعجبها "باخ" و"بارت" و"بروخ".. تجد ذوقي الموسيقي حزينًا.. وهو كذلك بالتأكيد في هذا الإفطار..

- قهوة وموسيقى جنائزية... يا لها من بداية لهذا النهار!

كنت أحتمل تعليقاتها، وأتعمد ألا أستمع من خلال سماعات الرأس.. كنت أحتملها، وأنا أسخر من سماعات الرأس باعتبارها رمزًا لجيل جديد غير اجتماعي بالمرة، إلى أي مدى أكثر يمكنني الاستمتاع بالموسيقى..

ولكنهم الآن، وفي محاولة بائسة لا طائل من ورائها لإرضائي، يدللونني..

تؤكد "شارلوت" مرة أخرى أنها عماد هذه الأسرة المفككة..

- بابا...

- نعم؟

- بابا، أتعرف ما يحدث اليوم؟

- أجل..

- ماذا إذًا؟

سكتُّ ولم أرد..

- ماذا، بابا؟ هل يمكن أن تخبرني؟ ما الذي سوف نفعله اليوم؟

- نعم؟

- سوف نصحبك إلى منزل آخر!

كان الحوار أقوى من أعصاب "مونيك"، التي تغالب دموعها..

- هذا مؤقت فحسب، بابا.. أريد منك أن تعرف أنـه أمـر مؤقـت، وأننا نقوم بذلك لأننا نحبك ونريد أن نعتني بك على أكمل وجه..

- نعم..

- لكنك مررت بفترة مضطربة للغاية وتحتاج إلى استعادة نفسك.. وبمجرد الانتهاء من الاختبارات وعودتـك إلى رشـدك، سـتعود مبـاشرةً

إلى المنزل، هل تفهمني؟

- نعم..

أعجبتني السهولة التي تكذب بها عليَّ.. إنها النوايا الطيبة، ربما، ولكن ذلك لم يمنعني في التفكير في المرات التي خدعتني فيها قبل ذلك.. إنها موهوبة في النفاق.. أعترف لها بذلك.. كما أنني عاجز عن توبيخها الآن..

سوف نذهب إلى هناك بسيارتين.. ولأن "هوجو" كان قلقًا من عواطف ومشاعر أمه وأخته وفكرة إقدامهما على أفعال يصعب توقعها ما إن أخرج من بوابة المنزل من دون عودة؛ فقد قرر أن يملأ سيارته بكل المستلزمات الضرورية: ثلاث حقائب مليئة بالملابس؛ بيجامات وملابس رياضية، بالإضافة إلى أثاث غرفة جديدة.. وذهبت أنا و"مونيك" في سيارة "شارلوت".. صاح "هوجو":

- جاهزون..

الموت نفسه كان ليصبح أشد بهجة من هذا الموقف..

لا شيء يربطني بمنزلي بعد الآن..

تناثر الجيران في الشارع، يراقبون رحلتي الصامتة.. أحدهم يروي عشب حديقته الأمامية، وآخر يحرك آلة جز الحشائش على الرقعة نفسها من العشب للمرة الرابعة في ذلك الصباح.. كثيرون منهم عاصروا حضورنا للعيش في هذا الشارع لأول مرة.. منازلنا في العمر نفسه تقريبًا.. وأجسادنا أيضًا.. ونشأ أطفالنا مع بعضهم البعض، وتلقينا استدعاءنا الأول لفحص البروستاتا معًا وتحدثنا عن نتائجه على ناصية هذا الشارع.. ربما في مكان ما، في ثنايا القلب، كانوا حزينين لأجلي فقط، ولكنهم يدركون أن انتقالي إلى دار مسنين يعني حقيقة واحدة: إن جيلهم أوشك على الزوال..

كانت "ماري لويز" من المنـزل رقـم 31 الوحيـدة التـي وقفـت في قلب الشارع بلا حراك.. إنها بدينة وكان في خروجها من منزلها مشقة بالغة..

- بابا، هلَّا أتيت وجلست إلى جواري في السيارة؟ وماما تجلـس في الخلف؟ وسيتبعنا "هوجو" بسيارته... تعالَ!

برغم أنها تواجـه صـعوبة في الاحتفـاظ برباطـة جأشـها، ولكننـي تعمدت أن أنظر في عينيها، وأنا أقول لها:

- لا أعتقد أنني سوف أنخدع بما تقومون به، أليس كذلك؟

- ما قصدك، بابا؟

- قصدي؟ أقصد أنني أذكى مما تظنين... هذا هو قصدي!

- قل لي، ما الأمر؟

- انظري إلى السيارة، "شارلوت"! ماذا ترين؟

- لا أرى أي شيء..

- لا ترين شيئًا.. انظري ثانيةً!

- لا أرى شيئًا، بابا.. فعلًا لا يوجد شيء.. قل لي، ما الذي تريدني أن أراه؟

- الكارافان! لم تقوموا بتوصيل الكارافان.. كدنا نذهب من دونه، مرة أخرى!

وعلى الرغم من عدم اقتناعه بطلب أخته، فإن "هوجو" وافق في النهاية على إحضار الكارافان وتوصيلها بالسيارة.. ووضع مرايا إضافية، لتفادي الحوادث! وعندما انطلقنا أخيرًا، بعد عدة تأخيرات، قلتُ لـ"شارلوت":

- انظري إلى الجيران الذين يراقبوننا بكل دهشة! إنهم يحسدوننا بشدة.. هيَّا، أطلقي نفير السيارة، لنزيدهم حنقًا..

تحمـست، وأنزلـت زجـاج النافـذة، واخـذت ألـوح لهـم بـذراعي لإغاظتهم، حتى ابتعدنا في الشارع.. وفي تلك الأثناء، كان أحدهم، وأنا أعرفه جيدًا، يقول بكل تأكيد: "ربما ضاع عقلـه... لكنـه عـلى الأقـل لم يعد يعاني.. يا بخته".

(7)

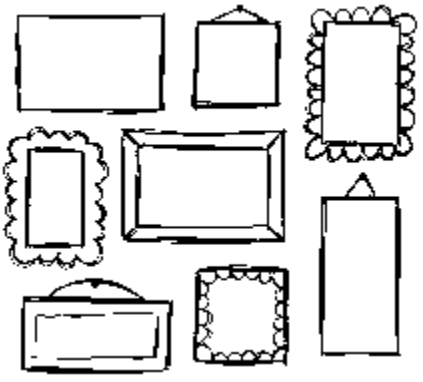

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان".

(نكتة لا أكثر... كان جوزيف روث يهذي بها).

ذكرى غريبة لقبلة ساخنة لم أحصل عليها أبدًا.

فتات خبز.. كان فيها عزاء أكبر مما قدمه لي أي برليني طيب..

أبيات من قصيدة "العمة المجنونة"..

وشوق إلى تيشيرت مطبوع عليه "الحياة تبدأ بعد السابعة والأربعين".

هأنذا في المحطة التي سعيت إليها.. غرفة صغيرة، أربعة أمتار في خمسة، تقريبًا.. في البداية، تضايقت من الأثاث المتهالك الذي وضعته "مونيك" فيها.. لم تستطع ببساطة أن تغفر لي أني نسيتها، لدرجة أنه صار من العبث أن أبحث في سراديب عقلي عن اسمها.. الأسوأ من ذلك؛ وحسبما يتظاهر عقلي المريض، أنني أنكر وجود هذه السيدة التي تزعم أنها زوجتي.. ولذلك، قررت أن تجعلني أعاني فوق فراش رخيص وأمام تليفزيون صغير عفا عليه الزمن..

ودولاب ملابسي؛ هذا الوحش العجوز المتهالك، الذي لم يجد له من مشترٍ سوى زوجتي، التي ظلت تبحث عنه طوال شهر من سوق إلى آخر من أسواق الكانتو.. فقدتُ حقي في أي شيء ذي جودة، ومن الواضح أنه من العبث إنفاق أي مال لأجل راحتي..

- لماذا أصرف على دولاب جديد؟ هو لن ينتبه للفارق من الأساس!

إن جماليات بساطة الديكور مفهوم بعيد عن عقلية "مونيك"،

ولهذا كانت حريصة على ملء كل مليمتر مربع في منزلنا بشارع "أزاليا" بالمزهريات، ريش الطاووس، الساعات، وكل ما شابه ذلك.. وفي هذه المرة عبرت عن خوفها المرضي من المساحات الفارغة بنثر العديد من براويز الصور في غرفتي الصغيرة على الرغم من أنها ضيقة بالفعل.. تسألني عن تلك الصور؟ إنها صورها هي! "مونيك" وزوجها، "مونيك" وولديها، "مونيك" وزوجها وولديها، و"مونيك" وحدها.. لا توجد أي صورة جماعية لنا.. تفضِّل الملكة صورها وسط الأزهار والشجيرات.. مع وقفتها المميزة التي تلامس فيها أصابعها أطراف الأزهار وأوراق الشجيرات.. والنتيجة تكون صورًا في غاية السخافة: امرأة بابتسامة مثل تلك التي في إعلانات معجون الأسنان، تقف متخشبة متيبسة وهي تحدق في العدسة..

كان أي "جلسة تصوير" مع "مونيك" عذابًا للعائلة بأكملها.. توزع أوامرها على الكل، وتوجههم أين وكيف يقفون.. كما أنها ليست

من النوع الذي يحب الدعابة والنكات بكل تأكيد.. وعندما كان ابني وابنتي لا يزالان صغيرين ويحبان عمل الحركات المضحكة أمام الكاميرا، كانت أمهما تجد في تلك الحركات عدوانًا صريحًا على كيانها..

- هل هكذا تحبان أن يتذكركما تاريخ الأسرة؟ بهذه الحركات؟ هيَّا، هندم هذا القميص، وأنتِ توقفي عن صنع هذه الحركات البشعة! واحد.. اثنان.. ثلاثة.. ابتسامة عريضة!

"ابتسامة عريضة" هي كلمة السر التي تفتح بها عدسة الكاميرا..

كان من اللازم أيضًا أن تتشابك أصابعنا أمام الكاميرا، تمهيدًا لتلتقط هي صورها الخالدة.. وكانت المرات القليلة التي وضعت فيها ذراعها حول كتفي لأجل الكاميرا.. ويكون على من يصورنا أن يتقبل أوامرها أيضًا.. هي من تقرر ما إذا كنا سنستخدم الفلاش أم لا، وزاوية التصوير، والمنظر الطبيعي في خلفية اللقطة، وما إذا كانت سيقاننا ستظهر في اللقطة أم لا، وويل لمن يتجرأ على الاستهانة

بتعليماتها.. ولـو أننـا كنـا لا نـزال نـستخدم الماغنيـسيوم في التـصوير الفوتوغرافي، وكما لو أنها ليست مجرد صـورة عائليـة عاديـة تلتقطهـا كاميرا عادية.. كأننا نقف أمام الرسام "دييجو بيلاثكيث" وهو منشغل بالإبـداع عـلى قـماش لوحـة جديـدة.. تعلـيمات تلـو التعلميـات... "احبسوا أنفاسكم، لا تتحركوا!".

أمَّا التصوير الرقمي فكان وبالاً عليَّ.. فمنذ ذلك الحين و"مونيـك" تتأكـد مـن كـل صـورة تلتقطهـا.. ويعنـي هـذا بـالطبع أننـا سـنعاود التقاطها.. فمثلًا، كنا نطفئ شمع تورتة عيـد المـيلاد ونـشعله مجـددًا أكثر من تسع مرات، وأكثر، قبـل أن تبـدي رضـاها عـن تـسجيل تلـك اللحظة التاريخية..

لذا، كنت أبعد ما يكون عـن الـسعادة وسـط كـل هـذا الاهـتمام الزائف من العائلة.. وفي واحدة مـن المـرات الأولى التـي زارتنـي فيهـا "مونيك" اكتشفت أنني قد أزلت كل، وأعني كل، الصور من إطاراتهـا

واستبدلت بها صورًا وإعلانات من المجلات القديمة.. فبدلًا من صورة زوجتي وهي تقف تحت برج إيفل بينما تحمل حقيبة يد تحت ذراعها، وجدت أمامها صورة لإعلان خصم على قطعة لحم بروسيوتو؛ الكيلو بـ 19.99 يورو فقط.. واستبدلت بورتريهات أحفادنا؛ تصحيح، صور "مونيك" مع أحفادنا، بصور لحوادث سيارات، وصور زفافنا حلت محلها صور من الجو لأحياء فقيرة في أمريكا الجنوبية.. واضطرت رئيسة الممرضات إلى أن تهدئ من روعها، وتعزيتها، ومحاولة إقناعها بأنه مهما أطالت التأمل في الصور، فلا يمكنها أن تتصور يقينًا أن زوجها يفضِّل فخذ من اللحم عليها، كما أن من طبيعة مرضي أن أبدي سلسلة من الخيالات التي لا يمكن لأحد التنبؤ بها؛ فلم يكن هناك أي سبب حقيقي وراء أفعالي، بل هي أفعال فارغة لرجل فقد عقله..

كم هي بارعة رئيسة الممرضات هذه.. برافو!

وما كان شائنًا أكثر من كل تلك الصور الكاذبة هو الرموز الدينية التي أصرت "مونيك" أن توزعها من حولي.. صليب فوق سريري، عليك أن تتخيل المنظر! وكانت حجتها هي أنه "لا يمكن أن يضرك على أي حال!".. ووضعت فوق الكومود جوار السرير تمثالًا متوحشًا للقديسة ريتا، التي كانت فيما يبدو قديسة شفيعة للحالات الميؤوس منها.. ربما كانت مصيبة "مونيك" هي الغباء وليس الخبث والحقد، وأنها اقتنعت ببساطة أن وجود هذه الأصنام جزء لا يتجزأ من مفهومها عن أن تكون في بيتك.. ولكن الشخص - أنا أتحدث عن نفسي هنا - الذي نشأ في مجتمع كان فيه الدين بديهية مسلَّم بها، حتى اعتبر أن إلحاده إنجازًا في حد ذاته، وأنه كان نتاجًا لفكر عميق وشجاعة قرار، لا يسعه إلا أن يشعر بالسخرية ممن يحاول صك خاتم "الكاثوليكية" على جبهته.. شعرت بأنني ضحية خداع فلسفي تقوم به زوجتي المخلصة، وندمت على عدم قدرتي على الخروج من

الشخصية التي أتقمصها ولو لدقيقة، حتى أشكوها لطاقم التمريض في "وينترلايت".. ضايقني هذا كثيرًا، بعد أن صرت في نظر الجميع في الدار مؤمنًا تقيًّا ينتظر الموت بكل صبر وإيمان.. ومع أول حشرجة تصدر عن حنجرتي أو أصغر بقعة دم تنبثق بعد سعال، سأجد قسًا عند فراشي، منهمكًا في تنفيذ طقوس الاحتضار.. وكم شعرت بالخجل وأنا أتخيل جنازتي في كنيسة..

من حظي أنني أوضحت منذ سنوات عديدة، وبدون علم "مونيك"، في وصيتي أنني لا أبالي بالطريقة التي سوف يتعاملون بها مع رفاتي؛ طالما أنني لن أُدفن بجوار زوجتي! تكفيني كل تلك الليالي التي كنت أرقد فيها إلى جوار "مونيك" في الفراش مثل جثتين، ولست بحاجة إلى أن أرقد إلى جوارها تحت الأرض إلى الأبد.. لترقد في قبرها وحدها! ستكون لطيفة ومريحة تحت رخام قبرها وصليبها وصورتها، وهي ترسم ابتسامة إعلان معجون الأسنان، تمهيدًا

لصورة لن يلتقطها لها أحد..

لا أريد أن أشيد بنفسي، لكنني قمت بتحطيم تمثال القديسة ريتا إلى أشلاء.. وكان مصير أشلاء تمثال قديسة المنكوبين سلة المهملات، فوق الحفاضات والإبر المستعملة..

ووجدت متعة أكبر في التخلص من هذا المسيح شبه العاري.. وكنت أقبع في الليل، أبكي بشكل فظيع؛ موعد نوبة القلق والهلوسة.

كنت أصيح.. طرزان في غرفتي.. سيقتلني!

هرعت "كورا" ذات الجسد المثير إليَّ تطمئنني.. لم تكن تريد الاستهزاء بمخاوفي، لكنها لا ترى أمامها أي طرزان.. أخذت تمثل عليَّ.. تزعم أنه ربما غادر بالفعل؛ فهي لا تجده تحت السرير.. وأخذت تهدهدني حتى نمت، بعد أن كان لقرص المهدئ مفعول السحر..

وبالطبع، كان من اللازم أن "يحضر" طرزان في كل ليلة.. وهل هناك ما يمنعني من ذلك؟ لا تنسى أن جدتي كانت تشكو دائمًا من وجود هنود حمر في غرفتها..

- هناك! طرزان! فوق الوسادة! على الحائط! انجدونيييييي!

- ولكن هذا ليس طرزان، حبيبي.. هذا تمثال يسوع!

أسمعها، فتزداد نوبة فزعي حمّى..

لم يكن بوسعهم الاستمرار في دس المهدئات والمنومات في فمي وحقنها في وريدي.. أو أن يقوموا بتقييدي في الفراش؛ فكم كانت دهشتي بعد أن اكتشفت أن هذه الفعلة المشينة لا تزال قائمة، كما أنها تؤذي معصميّ وكاحليّ بشدة.. لذلك، وجدوا أن الحل الأسهل هو الحل الأرخص والأفضل؛ أن يرفعوا الصليب من غرفتي..

وصدق أو لا تصدق... لم يعد طرزان يظهر..

والراديـو... أجـل، لقـد جلبتـه معـي.. وعنـدما قامـت زوجتـي بتشغيله، كان أحد علماء الجريمة يتحدث.. يصر على أن عاصمتنا أكثر أمانًا ممَّا يزعمه الرأي العام.. هناك بالطبع جرائم مفجعة تحدث هنا وهناك في الأزقة القذرة.. وهناك بالطبع أعمال شغب وعنف تقع بين ألتراس الأندية بعـد مبارياـت كـرة القـدم.. وهنـاك، بـالطبع، حـالات السرقة والسطو المسلح التي يتعرض لهـا سـائقو الحـافلات والعجـائز المتقاعدون.. ولكننا على الرغم من ذلك بلد أمـن وأمـان، طالمـا بقـي الناس بعيدًا عن دهاليز محطات المترو الكئيبـة في المدينـة.. يقـول إن الإحصائيات أثبتت أن فرصة الزواج من قاتلك أو قاتلتـك أكـبر بكثـير من احتمال أن تُقتل على يد غريب في شوارع المدينة.. لا يزال الـزواج أخطر شـكل مـن أشـكال التنظـيم الإجرامـي، وبفـارق كبـير، ولكننـا لم نسمع أبدًا عن أي حزب من الأحزاب المتطرفة وهو يهدد ويتوعد هذه

المؤسسة البرجوازية القديمة.. على العكس، إنهم يتحدثون عن الـزواج والأسرة باعتبارها حجر الزاوية في المجتمع!

- حسنًا، يكفي هذا..

تمتمت وهي تخرس المتحدث عبر الأثير، بضغطة زر..

- لا تغلقيه.. كلامه مهم..

هذه لحظة يقظة نادرة.. إنها مطلوبة ما بين آن وآخر، لمزيد من الحبكة.

أشاهد التليفزيون أيضًا، وإن كان ذلك بعد قدر كبير مـن الـتردد.. أفعل ذلـك حتـى لا أفـضح نفـسي.. لأن مـصاب ألزهـايمر قـادر عـلى الجلوس دون كلل أمام هذا الصندوق الأبله.. عودت نفسي على خواء وملل البرامج، ودربت عينيّ على نظرة الشرود والسعادة البلهاء بينما أحدق في الشاشة، إلى أن أغفو، وتأتي الممرضات لإعادتي إلى السرير..

لذلك كان الراديو رفيق أفضل لشخص يعاند الموت لأطول وقت ممكن، بعد أن أحرق كل الجسور التي كانت تربطه بالحياة.. أميل إلى الموسيقى الكلاسيكية بالأساس، ولكن دون أن أشغل سمعي بالثرثرة عن الملحنين أو تفسيرات الألحان وتنويعات النوتة الموسيقية.. أستمع للموسيقى فقط، كما لو أنها كيان قائم بذاته وليس من صنع إنسان.. شعور رائع.. وأكاد أضحك عندما تريد ممرضة أن تسدي إلي معروفًا.. تراني غافيًا في الكرسي، فتشعر بالشفقة عليّ بسبب معاناتي من سماع سوناتا التشيلو على الرغم من أن عقلي أعجز من معايشة هذا التعقيد.. لذا، ومن دون أي طلب مني، تبادر بتغيير المحطة، وتبحث عن أي محطة شعبية..

- هذه الموسيقى مبهجة أكثر يا "ديزيري"، وأنا متأكدة من ذلك..

لا شك في أنها كانت جادة في رأيها..

في الآونة الأخيرة، كان رفيقي الأكثر إخلاصًا كلبًا أسميته "بابلو"، وكل واحد من النزلاء هنا يناديه باسم الكلب الذي كان يلعب دورًا في حياتهم السابقة، والتي لم يعد متبقيًا منها سوى منزل سوف يتم تقسيمه بين أقارب لا يجمع بينهم سوى بغض متبادل..

"بابلو" كلب صغير كثيف الشعر، ويسعده الجلوس على حجر أي أحد والسلام، فيتيح للعجائز فرصة الشعور بسعادة القدرة على التعبير عن حبهم لأي كائن.. وفي مقابل اطمئنانه لهم، كان يبث في قلوبهم الفرحة.. كان ذلك الكلب عبارة عن مضاد للاكتئاب.. كنت قد سمعت أن عددًا متزايدًا من دور الرعاية يستعين بالحيوانات الأليفة ضمن أطقم الرعاية.. ويمكن مقارنة سعر كيس بسكويت الكلاب الرخيص بالأجور الهزيلة التي يكسبها عمال الرعاية هنا.. ويمكنك أن تسأل نفسك بحق، ما الذي يفيد شخص على وشك الموت أكثر.. صمت كلب مطمئن قابع في حجره، أم صخب ممرضة تآكلت

معنوياتها بسبب أجرها المنخفض؟

لم يكن لديَّ كلب من قبل على الإطلاق، على الرغم من إلحاح ولديّ لأجل الحصول على واحد وقت أن كانا صغيرين، وكنت آمل سرًا أن ينجحا في تغيير رأيي.. وللأسف، لم تكن "مونيك" مولعة بالحيوانات.. إنها لا تتورع عن بتر العناكب الحية نصفين بمقصها، أو شفطها بخرطوم المكنسة الكهربائية.. زاعمة أنها تخاف منها.. وبالتالي كانت الكلاب في فئة أسوأ، لأنها لن تتمكن من قتلها بمقص أو شفطها بمكنسة..

- كلب؟ إن له أنيابًا.. تعض! كما أنها تجتذب كل أنواع القاذورات والأمراض وتنشرها في المنزل.. كلا.. ممنوع..

لذلك، راودني شعور رائع وأنا أعرف أن "مونيك" ستأتي لتزورني لتجد "بابلو" قابعًا فوق ركبتيّ.. سمعتها تصيح:

- "ديزيري"، أرجوك، أبعد هذا الحيوان.. إنه ينثر جراثيمه على ملابسك!

- من أنتِ؟ لن تجدي أي شيء هنا، أموالي آمنة في البنك.. سارعي بالخروج من هنا وإلا اتصلت بالشرطة وأطلقت كلبي عليكِ..

تسألني عمَّ يحدث لو أنها تجاهلت تحذيراتي أو سخرت منها؟ أبدًا.. ينطلق صراخي المفزوع ليصم آذان كل من في الدار، وبطريقة صرت بارعًا في أدائها.. إنها لحظة من تلك اللحظات التي تملأني بالمتعة، وحينها أدرك أن مغامرتي تستحق كل شيء..

وترتسم على وجهي ابتسامة عريضة..

كنت قد يئست من إمكانية رؤيتها مرة أخرى، عندما وجدتها فجأة أمامي: "روزا روزندال"! في غرفة الطعام! وهي بلا أسنان وترتدي بيجامة لونها بيج.. رأيتها تمص إصبعها، كما لو أنها وجدت

أنه من الضروري أن تذكر نفسها في كل لحظة أنها عادت إلى طفولتها ثانية.. ولولا أنني أعرف الحقيقة، لأقسمت أنه من غير الممكن أن يكون هذا الرأس الفارغ ملكًا لتلك المرأة التي أذهلتني في الماضي.. هذه التي لم يبقَ من جمالها إلا ذكريات في أحلام أولئك الذين عجزوا عن امتلاكها.. تأملت هذا الحطام البشري الذي تقطعت به السبل أمامي، وكنت أتمنى أن أكون مخطئًا، ولكن لا: إنها "روزا"... "روزا" وحدها، قابعة في كرسيها المتحرك في ركن من غرفة الطعام.. إنها "روزا"... "روزا" وحدها، وما زلت لا أعرف كيف استحضرت السيطرة القوية على النفس حتى أكبح جماحها؛ كيلا تنفجر فرحة وبهجة، وينفضح أمري..

لقد مرت أشهر وأشهر على يوم أن سمعت أنها كانت تعاني من تصلب الشرايين، وتم إدخالها دار الرعاية حتى تعتاد دائرة معارفها

فكرة نسيانها تمامًا.. وكانت فرص وفاتها في ذلك الوقت كبيرة.. ولكن ها هي ذي... "روزا"..

كنت أراقب تقدمي في العمر في غرفتي الضيقة العتيقة ببطء، يومًا تلو الآخر.. وبالطبع، كان ما أراه عندما أقف أمام المرآة لحلاقة ذقني تفاحة ذابلة أقرب منه إلى أن يكون وجهي، وليس في هذه الحقيقة أي شيء ممتع على الإطلاق.. ولكنني لم أكن غاضبًا أبدًا من رؤية نفسي عجوزًا يتداعى.. فعلى حد علمي، ما زلت أرى وجهي الحالي هذا في أحلامي، وفي كوابيسي أيضًا، وعندما أخلد إلى النوم.. أن أكون شابًا وأكون نفسي مرة أخرى، وأن أعايش من جديد بضع دقائق من شبابي؛ ذلك امتياز لا يمكن حتى لأكثر كتَّاب السيناريو سحرًا أن يمنحني إياه.. لقد كبر مظهر الرجل القابع على الجانب الآخر من حوض الغسيل في الزمن مع أفكاري؛ وصار وجهي يحمل التعبير المثالي لما في داخلي من أفكار ومشاعر..

تعودت على قبحي..

عندما أتذكر صورة جدتي، أراها امرأة في الستين.. مما يعني أنني أفكر الآن في جدتي باعتبارها أصغر مني بكثير..

كانت صورة "روزا روزندال" التي تجمدت في ذاكرتي هي تلك التي رأيتها عليها يوم وقفنا معًا في موقف سيارات مركز "ألباتروس" للحفلات، قبيل أن تتسبب حماقتي في ابتعادها عن مستقبلي.. فتاة، آنسة.. في ربيع حياتها الدافئ القصير، بتصفيفة شعر كانت على الموضة آنذاك.

قبل وقت طويل من ظهور برامج الكمبيوتر التي يمكنها توقع شكل وجهك في مرحلة الشيخوخة بكل دقة (وكان الهدف من تصميمها في البداية المساعدة في العثور على الأشخاص الذين فقدوا منذ زمن طويل)، كنت - مثل أي قرد شاب - أستمتع بتخيل هيئة أصدقائي عندما يصبحون أجدادًا.. من سيكون أصلع، من سيكون

أشيب الشعر، ومن سيصبح معاقًا، ومن سيصبح بشعًا.. تخيلتهم بالشوارب، وظهور حدباء، وأطقم أسنان.. لكنني لم أجرؤ على تخيل صورة "روزا".. إنها قديسة..

واليوم، بدد الزمان كل خيال..

لهذا غضبت للغاية من ذلك الرومانسي الذي ادعى أن آثار الجمال كانت أكثر جمالًا من الجمال نفسه.. أعلنتُ الحرب عليه.. إمَّا الحرب، أو على الأقل أن يشتري لنفسه نظارات جديدة بعدسات أقوى.. ولم يكن هناك من سبيل لمقارنة تأثير ظهور المرأة العجوز اليوم بطلتها وهي شابة، والتي كان ينخلع لها قلب كل شاب منذ أكثر من نصف قرن..

أكانت تنظر إليَّ، أم أنه خيالي؟

"روزا"... "روزا"...

امتزجت فرحتي للَم شملنا بمسحة من اليأس.. لم أكن منزعجًا أبـدًا من الأجواء التي قررت أن أقضي فيها بقية حياتي.. على العكس، فقد كان البؤس المحيط بي جزءًا متوقعًا من اللعبة.. لكن رؤية "روزا" وهي تعيش أيامها الأخيرة في هذا المكان، وفي مثل هذا الحال من الإهـمال، أحزنتنـي بكل تأكيد.. ولو كان لها أن تعود في الزمن، لما ترددت "روزا" لحظة في أن تنطلق بسيارتها بكل سرعة وقوة حتـى تـصطدم بـشجرة بلـوط عتيقـة، لتنهي حياتها، وتتجنب هذه النهاية الكئيبة..

كنت أتوقع عـلى الأقـل أن يـضعوها بـدار رعايـة أكـثر فخامـة مـن هذه.. وعلى الـرغم مـن ذلـك، وبـالنظر إلى المـصاريف المرتفعـة لهـذه الدار المتهالكة، فإنها تـساوي متوسـط راتـب شـهري محـترم، مـن دون احتساب فواتير الطبيب والأدوية والحفاضات.. وما زال عليك أن تعتني بغسيل ملابسك بنفسك، فتعطيها لأولادك وهـم يعيـدونها إليـك.. ومـا تحصل عليه في مقابل المـال الكثـير الـذي تدفعـه فلـيس سـوى خدمـة

متواضعة للغاية، وقد تسقط أرضًا وتبقى راقدًا لساعات فوق البلاط البارد في حال تعثرت وأنت تغادر الفراش، وهذا ببساطة لأنه ليس هناك عدد كافٍ من الممرضين والممرضات.. أحدثك عن جاري، مثلًا، الذي أمضى ليلة كاملة راقدًا عاريًا على الأرض، وهو يئن طوال الوقت، واضطر إلى الانتظار حتى الصباح قبل أن تكتشف حالته أول ممرضة تمر على غرفته.. أمر مثير للشفقة، أن تقبع قليل الحيلة بينما تسمع أنين شخص لا يملك قوة كافية حتى لتحريك أحباله الصوتية..

أعرف أن "لايزبيث" في الغرفة 16 تعاني من سرطان الفم.. ويجب عليها أن تغسل فمها ثلاث مرات في اليوم، ولكن غالبًا ذلك لا يحدث، وليست هي التي تنسى ذلك وحدها.. يبقى كوب تشطيف الفم ممتلئ بالقيح وقطع صغيرة من لحم فمها الذي يهترئ وتبصقه على حاله طوال اليوم، إلى أن يتذكرها أحد ويأتي إليها.. كما أن مطبخ الدار لا يدرك الصعوبات التي تواجهها في مضغ الطعام، لذا يأتونها

في بعض الأحيان بشريحة لحم غليظة لا يمكنها أن تأكلها، ولكن الممرضة تأتيها بالوجبة بكل بهجة وسعادة وهي تظن أنها وجبة الأحلام لتلك المسكينة... "انظري ما حصلت عليه لكِ اليوم، "لايزبيث"... إنها شريحة لحم لذيذة!".. بينما "لايزبيث"، المطيعة المحترمة بطبعها، تلتزم الصمت ولا تدري ما تفعل، ولكنها تعزي نفسها بأنها في دار رعاية تقوم مجموعة راهبات بالإشراف عليه.. وهكذا، تبقى في مكانها، تنظر في حسرة إلى شريحة اللحم من دون أن تقربها.. ومن يستطيع إلقاء اللوم عليها؟ ربما وجدت في الموت جوعًا، مصيرًا ألطف بكثير من الموت بالسرطان.

بمجرد أن ظهرت "روزا" في المشهد، صرت سعيدًا بالتخلي عن هدوء غرفتي الذي اكتسبته بشق الأنفس، وكنت أطلب من الممرضة الخروج بي إلى الصالة.. وكان على مديرة الدار أن تشرح لزوجتي هذا السلوك الجديد:

- لقد تكيف زوجك بشكل جيد مع ما يُعتبر بالنسبة له بيئة جديدة وغريبة ومخيفة في كثير من الأحيان.. فبعد دخولهم هنا، يبقى كثير من النزلاء في وهم أنهم هنا لبضعة أيام على الأكثر، وبالتالي يصيبهم اكتئاب عميق ومستمر عندما يدركون أن صلتهم بعائلاتهم انقطعت إلى الأبد..

فسر لهم ذلك اعتيادي أن أترك جلستي إلى جوار الراديو؛ لأشارك في جلسة بعد الظهر الجماعية، حيث ألعب معهم البِنجو أو السلم والثعبان، بينما في الحقيقة كان أملي هو أن أرى "روزا".. كان من الواضح أنني مثل من يغامر بالمشي فوق طبقة جليد رقيقة.. فعلى الرغم من أن تلك الألعاب طفولية، فإن فيها الكثير من الفخاخ التي تفضح من يتظاهر بأنه خرفان، وكانت فرص سقوط القناع أكبر من أن أرتاح لها.. لم أكن على يقين من أن يتسق التواصل مع الآخرين مع طبيعة حالتي.. لو أنني أمضيت وقتًا طويلًا في النظر إلى "روزا"،

ومتابعتها بعينيّ، وجلست بجانبها إلى الطاولة كلما سنحت لي الفرصة، فهل أخاطر بكشف نفسي؟ لا أعرف، ولكن الحذر واجب..

وما هذا؟ فنون وحرف يدوية؟ خذوني معكم!

قمت بتلوين زينة شجرة الكريسماس، وبيض عيد الفصح وأقنعة الكرنفال، وصنعت سلّات من الورق، ونفخت بالونات.. أو على الأقل أظهرت نية صادقة للقيام بكل ذلك (وأنا حريص، بالطبع، على أن أبصق أكثر مما أنفخ في البالون).

لكنني كنت أهتم بجلسة الغناء، التي يسمونها "كورال الذاكرة".. وهي فكرة مبتكرة قدمتها دور الرعاية.. فقد ثبت علميًّا أن الأغاني التي يسمعها المرء كثيرًا في شبابه تستقر نسبيًّا في ذاكرة مريض ألزهايمر، ومن بعد تلك النظرية انتشرت "فرق الذاكرة" الموسيقية هذه في دور المسنين.. لم تكن فرقة "فيننا فوجيز" تقوم بشيء غير الغناء.. تلك الأغاني القديمة المرحة، والألحان من حقب ماضية..

ووفقًا للمتخصصين، فإن من الجيد لمن هم في هذه السن الضائعة أن يدربوا ذاكرتهم؛ فالغناء يرفع من معنوياتهم ومن ثقتهم بأنفسهم.. لم يكن من الممكن أبدًا أن يخطر للممرضة "ديرك"، مايسترو الفرقة، أن أحد نزلاء الدار ربما كان عضوًا في فرقة موسيقية وهو صغير.. أعني فرقة حقيقية تؤدي مقطوعات "باخ" بكل إحساس..

لم تكن هذه الفرقة تقدم إلا أغاني الزمن الجميل والألحان الشعبية.. ولكنني لم أعتبر ذلك نهاية العالم، واحتفظت بالمقطوعات الكلاسيكية لمخيلتي ونفسي، بينما أدندن معهم كما شاءوا.. ولدهشتي، أدركت أن تلك الأغاني تقاوم بالفعل شراسة الزمن.. كانوا يغنون بسلاسة، ومن دون أي مجهود لتذكرها..

تمر "روزا" في بعض الأحيان على جلسات الألعاب والأنشطة، ولكنها تداوم على حضور كورال الذاكرة.. وإذا تمكنت من أن أجلس إلى كرسي بجوارها، أكون أسعد رجل في الكوكب والمجرات المحيطة،

وأغني بحماس لم أكن أعتقد أنني أمتلكه:

"ربما لا أذكر اسمك، لكنني لن أنسى أبدًا قبلتك الحلوة

كان حبك بالنسبة لي لعبة، وصار الآن في أحلامي نعيمًا

لم أقابل أبدًا فتاة مثلك تعني لي الكثير

لكنني قلت وداعًا وعشت حياة من الوحدة البائسة".

بين الحين والآخر، أتبادل أنا و"روزا" النظرات ونحن نـردد كلـمات أغنية "راي فرانكي"، ولاحظت أنها لم تعد تلك النبتة الذابلـة في كـرسي متحرك: كانت امرأة سعيدة.. خلال تلك اللحظـات الـسحرية، ترتـسم ابتسامة عريضة في كتلة الجلد الرمادية التـي اسـتحال إليهـا وجههـا.. راح زمنها، ولكنها سعيدة طالما استمرت تلك الأغنية..

"رغم أنني لم أذق طعم قبلتها الحلوة، لكنني لا أنسى اسمها..

كم هي نعمة أن تزورني في أحلامي، فلم يعد الحب الذي أشعر به لعبة"..

وهناك شخص آخر كان، وما زال، هو المحرك المخلص لنشاط الغناء الجماعي هذا، إنه "القائد ألزهايمر" في الدار.. يمكنك أن تحدس من حماسه أنه يسب ويلعن القدر الذي حبسه في كرسي متحرك، وكم يتمنى لو أنه تمكن من الغناء واقفًا، وراقصًا.. ولكنه على الرغم من ذلك يحاول أن يظهر حماسه هذا عبر أحباله الصوتية التي أضحت رخوة، وهو يجاري الفرقة.. وبمجرد أن يبدأ، لا يمكن لشيء أن يوقفه أو يسكته:

"اشحذ السكاكين الطويلة على حجارة الرصيف

اطعن بعمق واجعل الدم اليهودي يتدفق

يجب أن يتدفق الدم، سريعًا ثخينًا

عندئذ نبصق على حرية

هذه الجمهورية اليهودية"..

كما قلت لك.. رجل سعيد للغاية، ودليل حي على أن هذه الفكرة المبتكرة وسيلة اقتصادية جدًا لتهوين معاناة كبار السن..

كانوا دائمًا يختتمون جلسات الكورال ببعض الأغاني الجريئة.. وليس سرًا أن كبار السن من الرجال والنساء يحبون تلك الأغاني.. فكلما كان مركزهم محترمًا في أيام عزهم، كلما زاد شغفهم بالجنس وكل ما يوحي إليه.. معلمون سابقون، مبشرون بالمسيحية عادوا من مجاهل أفريقيا، مذيعو أخبار، قضاة، وزراء سابقون، آباء لعائلات كبيرة؛ جميعهم يصير مولعًا بالقيام بكل ما كان يتجنبه في السابق أمام العامة.. لكن الزمن لا يرحم، وعندما يفعل بنا فعلته، نعود إلى فطرتنا الأولى..

وكان "موال العمة المجنونة" من أشهر تلك الأغاني، وكنا قد اعتدنا في شبابنا أن نسمع العمال السكارى يغنونها، وكلماتها قذرة بالفعل.. قذرة بكل تأكيد..

أثارت تلك الأغنية حماسًا كبيرًا في "روزا"، التي كانت تغنيها من دون غلطة واحدة، كما لو كانت تتدرب عليها سرًا في غرفتها..

شعرت بالأسف لأننا لسنا معًا ضمن هذه الفرقة الغريبة.. كم كنت أحب أن ترانا "مونيك دي بيتر" ونحن نغني سويًا!

لم أكن ميالًا لجلسات التمرين تحت إشراف عازف أكورديون وأخصائي علاج طبيعي مسنٌّ.. وعلى الرغم من أنها كانت فرصة لرؤية "روزا"، فإنه كان من الصعب للغاية بالنسبة لي أن أعيد تحريك نظامي العضلي العظمي مرة أخرى.. السنوات التي تمر تُفقد المرء مرونته على أية حال.

كنت أفضل حتى وقت قريب يوم الجمعة، يوم الرقص.. كان ذلك

عندما حضر "لورنزو"؛ الذي كان يحاول فاشلًا تقمص شخصية فرانك سيناترا، ليعزف لنا على الأورج.. وعلى الرغم من أنه كان يغني نشازًا أغلب الوقت، فإن شاربه الكبير وملامحه الطفولية أكسباه شعبية لا تصدق بين الجدات هنا.. ولن أندهش لو أن إحداهن أوصت له بثروة محترمة، بعد أن صار "لورنزو"، عازف الأورج المتواضع، مصدر بهجتها الوحيد في الحياة..

من هو في حالتي لا يستطيع أن يعبِّر عن مللـه بالانصراف من المكان، لذا اضطررت إلى التأقلم مع مصيري ومراقصة أي شريكة يحددها لي طاقم التمريض المبتهج.. وكان الرقص في الغالب أقرب إلى الترنح مع الاتكاء على الممرضة.. يومًا ما سوف يختاروا لي "روزا"، وإذا أعطوها أدوية قادرة على منحها القوة الكافية لكي تفارق كرسيها المتحرك ولو لخمس دقائق.. فعندئذ سأبادر باحتضانها

ومراقصتها، بالحركة البطيئة، وعندما أتأكد من أن أحدًا حولنا لن يسمعنا، سأهمس في أذنها:

- "روزا".. هذا أنا.. "ديزيري كورديبه".. ما رأيك في أن نخرج من هنا للحظات، ونشم النسيم العليل.. الجو حار هنا!

بين سن السادسة عشرة والثلاثين، كنت أذهب إلى المسرح بانتظام، وكنت أفسِّر كل ما حدث على خشبة المسرح باعتباره تجريدًا للحياة الحقيقية.. أمَّا في هذه الأيام، فأحاول أن أسلي نفسي بمشاهدة مسرح الحياة.. وهذا مفيد في بعض الأحيان.. ومن ذلك، عندما كنت جالسًا في حديقة الدار في انتظار الحافلة التي لم تأتِ.. كانت الشمس ساطعة، تسلِّط أشعتها على طلاب الأمة الذين يقضون بقية الموسم في المذاكرة لأجل امتحاناتهم.. كانت نوافذ كل غرفة في الدار مفتوحة، ويأتيني صوت الراديو من إحداها.. صوت قوي، مناسب لعروض الأوبرا في

الهواء الطلق... والخطب الانتخابية.. انتبهت على صوت يقول:

- هكذا تفعلونها إذًا؟ تحقنون العجوز بمغذيات وأدوية غصبًا، حتى ولو لم يكن يريد أن يأكل؟

من أسفٍ أنني لم أسمع رد الممرضة، ولكن كان من السهل تخمين ردها من واقع ما دار من حوار بعد ذلك..

- بالطبع أبي لا يأكل.. ولمَ لا، في رأيك؟ هل لديه مشكلة في المريء؟ كلا.. هل تجمد فكه؟ كلا.. ما الأمر إذًا أيتها الممرضة؟ هل أخبرك؟ أوه، مهلًا، لقد أخبرتك بالفعل.. والدي لا يأكل لأنه لا يريد أن يأكل! لا يريد! ولماذا لا يريد أبي أن يأكل؟ لأنه سئم هذه الحياة! لأنه يريد أن يموت، إذا كنتِ تفهمين! هذا هو السبب.. وأنا أعتقد أنكِ عاجزة عن تبين شيء بسيط للغاية مثل هذه الحقيقة.. لا بدَّ أنكِ عمياء مثل الخفاش.. إما ذلك أو أن قلبك حجر.. وماذا تفعلون أنتم هنا مع من لا يريد أن يأكل؟ تحقنون الوجبة كاملة في ذراعه! حقنة

تلو الأخرى؟! شوربة.. طبق رئيسي.. طبق الحلو.. جميعها في وريده! استمتع بوجبتك، جدي؟! انظري إلى ذراع المسكين.. إنه أزرق من كثرة الحقن.. لا بدَّ أنكم وحوش لتفعلوا أمرًا كهذا.. فإذا حاول والدي أن يزيح الإبر عن ذراعه، وله كل الحق في ذلك، تمنعينه بالقوة كما لو كان مجرمًا.. والأسوأ من ذلك، أنك هنا في بلد لن تسجنك إلا في حال ارتكبتي جريمة قتل.. هل لي أن أسألكِ عمَّ ستفعلينه إذا لم يبقَ في ذراعي والدي أي مكان صالح للحقن؟ هل ستضخين الطعام عبر مؤخرته، أم ماذا؟

يا له من مشهد جميل، ولكن ذروته فاتتني بعد أن قام أحدهم بإغلاق تلك النافذة التي كنت أتابع من خلالها ما يجري وأنا قابع في الحديقة..

في أثناء ذلك الأداء العاطفي، كنت أتقاسم الجلسة في محطة الباص في الحديقة مع رجل ضئيل هزيل، خمنت أنه في منتصف الثمانينيات.. كنت أراه في الممرات وقاعة الطعام.. وكان يشاركنا في

بعض الأحيان لعبة السلم والثعبان، إذا كان يمكن أن تسمي ما نقوم به مشاركة؛ فهو لا يفعل أكثر من التمايل بالجزء العلوي من جسده في كل اتجاه، بينما يمسحون اللعاب عن ذقنه.. كان يرتدي صندلًا وتبرز أصابعه من جوربه الممزق.. الشيء الوحيد الذي كان لا يزال بإمكانه فعله بشكل صحيح في هذه الحياة هو تدخين السجائر.. وكان يدخنها واحدة تلو الأخرى..

سعل..

نظرت إليه:

- متى يأتي باص 77؟ عليَّ أن ألحق بموعد درس البيانو.

- يأتي في الدقيقة السابعة والدقيقة الرابعة والثلاثين من كل ساعة!

بصق عصارة التبغ نحو الأرض..

بدت لي خاتمة ممتازة للحوار القصير، الذي وجدتـه أعجـب حـوار خضته مع أي نزيل هنا منذ حضرت إلى "وينترلايت".. ولكنني وجدته راغبًا في مواصلة الحوار بكل اهتمام ونبرة قلق:

- أنـت متهـور.. لـو كنـت مكانـك لأخـذت حـذري، وإلا سـوف ينكشف أمرك يومًا ما..

أعرف أن هناك مجانين في كل مكان، وخصوصًا هذا المكان..

- معذرة؟

- من الواضح أنك تمثِّل.. ولكنك تبالغ في التمثيل..

- ما قصدك؟

- تعرف قصدي.. أنت تبالغ في التمثيـل، ولا تعـاني مـن أي خـرف حتى لو تظاهرت بعكس ذلك طوال الوقت..

- واو! هذا يعني أنك..

مدهش.. لقد أخذني على حين غـرة بالفعـل.. رجـل عجـوز هزيـل يكشف القناع عن وجهي..

- كان هذا هو أنت إذًا، في الأسبوع المـاضي؟ ظهـرت فجـأة خـلال الإفطار عاريًا، وأنت تبكي لأن أمك لم تأتِ لتأخذك للمدرسة..

- على المرء أن يتهور بعض الأحيان..

- أدهشتني.. لا أعتقد أنني قـد أصـل بالتمثيـل إلى هـذا الحـد، لـيس بعد.. أو أن أتجول في طرقـات الـدار ببدلـة عيـد المـيلاد.. لـست مـستعدًا لذلك.

- سيكون عليك ذلك، عاجلًا أم آجـلًا.. إنهـا مرحلـة مهمـة... هـل تتبرز في فراشك حقًا؟

- ليس كل ليلة.. ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع.. ولكنني تبولـت على دواسة الغرفة!

- وزوجتك؟

- لا أتعرف عليها..

- وأولادك؟

- أولادي؟ هؤلاء غرباء يأتون لأخذ ملابسي لغسلها كل سبت.

- ممتاز.. ممتاز بجد..

وأنا الذي ظننت أنني هربت من حماقة التفاعل البشري إلى الأبد.. يعتقد أي رجل (سواءً كان زوجًا أو أبًا، أو موظفًا متفانيًا، أو دافع ضرائب أمين محترم لا يخفي شيئًا) أنه أكثر المتقاعدين حبًا للمغامرة في العالم، وأنه الوحيد المجنون بما يكفي ليتصرف كما يحلو له، إلى حد التظاهر بأنه يعاني من الخرف.. وتنجح خطته، حتى إنه يتمكن من إقناع الأطباء بأن ليس في دماغه سوى فوضى ليفية عصبية ذهنية، ويصل منتصرًا وبكل احترام للذات إلى دار رعاية متخصصة، ليكتشف أن هناك من كشف أمره.. تبًا! استحوذت على عقلي فورًا فكرة أن الأمر لا يقتصر عليَّ أنا وهذا الرجل، وأن من الممكن أن يكون

في الدار المزيد من العقلاء الذين يتظاهرون بما ليس فيهم!

هـل يمكـن أن تكـون "روزا" مـثلي؟ هـل تتظـاهر وتمثـل أيـضًا؟ بالتأكيد، لا بدَّ أنها كذلك.. عندما أتذكر تلك النظرة في عينيهـا ونحـن نغني.

- هل تعتقد أننا النصابان الوحيدان هنا؟ هل تعتقد أن هناك غيرنا؟

طالما أنه كشف أمري؛ فالمنطق يقول إنه قد يكون كشف آخـرين داخل هذه البناية، ولكنه هز كتفيه نافيًا..

- ذلك الذي في الغرفة 18، المـسكين الـذي يقـضي الوقـت في قـص الصور من مجلات القطط! وتأتيه زوجته لزيارتـه مـع عـشيقها؟ هـل يمثل؟

هز كتفيه مجددًا، ولم يعقب..

- والضابط المتقاعد؟ "والتر دي بوت".. "القائـد ألزهـايمر".. كـما أسميه.

- صعب..

- على الأقل لديه سبب وجيه للتمثيل.. ألا تعتقد ذلك؟

- قلت لك لا أعرف.. ولكن لو أن مجرم الحرب هذا ليس خرفان، فإنه عندئذ يكون ممثلًا أفضل منك بكثير..

سكتَ، ولفَّ لنفسه سيجارة أخرى..

أدركت أنه تضايق من إلحاحي، ولكنني خاطرت بطرح السؤال الواضح المنتظر:

- لك حرية ألا تجيب، ولكنني أريد أن أعرف السبب الذي دعاك إلى أن تتظاهر بالخرف.

- الاعتدال!

- الاعتدال؟

- أن أكون مثل غيري وأن أكتفي بما قمت به..

- أوضح.

- الاتهامات الذاتية الخمس الأكثر شيوعًا التي يوجهها المرء لنفسه عند الموت: واحد؛ لقد عملت أكثر من اللازم.. اثنان؛ لقد عشت حياتك ترضي الآخرين.. ثلاثة؛ فقدت التواصل مع أصدقائك.. أربعة؛ لم تسعد بما فيه الكفاية.. وخمسة؛ لم تعبر عن مشاعرك بما فيه الكفاية.. هذه النقطة الخامسة والأخيرة لا تضايقني شخصيًّا، ولكن الأربع نقاط الأخرى هي التي نغصت عليَّ حياتي، وخصوصًا الاتهام الثاني..

- أفهمك..

- كما كنت أرغب في أن أكون وحدي من جديد.. خارج هذه الدار عالم الكلام، ولا شيء غيره.. كلام.. كلام.. كلام.. وتسمعهم يتكلمون ويتكلمون ويتكلمون.. لديك التزامات عائلية وغيرها، وغالبًا ما تتلخص تلك الالتزامات في صورة كلام وسماع كلام.. ولم أعد أطيق ذلك.. إنه هوس اجتماعي كامل.. كنت أرغب في أن أعيش في هدوء

وسلام، وأن أكون وحدي مع أفكاري.. هنا يمكنني القيام بذلك، نسبيًا.. المكان الوحيد الذي يقبل أن أكون منغلقًا على نفسي تمامًا.. كانت فرصتي الأخيرة، وفرصتك أنت أيضًا؟ من أين واتتك الفكرة؟

لم أكن متأكدًا تمامًا من قدرتي على شرح فلسفتي إلى حدٍ كافٍ لشخص غريب عني تمامًا، لذا طلبت منه سيجارة، حتى أكسب بعض الوقت.. أنا الذي لم أدخن منذ أن كنت في الحادية والعشرين.. قبل ذلك كنت أستمتع بها: أحببت المذاق، ومثل أي شاب قلق، شعرت بالامتنان للسيجارة.. ولكن الزمن والعادات تغيرت ومعها تغيرت نظرتنا إلى السجائر.. وكانت لدي صديقة طلبت مني الكف عن ممارسة هذه العادة النتنة.. إنها عادة مميتة.. تميتك صغيرًا.. على الرغم من أن رفيقي الجالس إلى جواري وهو يدخن السيجارة تلو الأخرى يُعد دليلًا قاطعًا على فساد هذا المنطق.. الحق يقال إنني، وبعد مرور أكثر من نصف قرن على آخر سيجارة، شعرت وأنا أدخن

هذه السيجارة بأنني لم أنقطع عن التدخين سوى ساعة.. لم أسعل، ولكنني شعرت بدوار لا يكاد يُذكر.. كانت تجربة لذيذة، وراودني شعور أفضل بعد أسابيع من العيش على وجبات "وينترلايت" الخالية من أي دسم أو ملح..

- إذًا، هل تعرف سببًا لقرارك أن تقضي بقية عمرك في هذه الدار؟

أجل، أعرف السبب..

- بدت لي الحياة تجري أسرع من أفكاري.. وقبل أن أحسم قراري، صرت عجوزًا.

لم تكن كلماتي، بل كلمات شخصية قرأتها في رواية.. بادرته وكأني أحاول أن أبرر لنفسي:

- كنت أمين مكتبة.. سعيد بعملي.. ولطالما اعتمدت على الكتب، ولم

أمانع في أن أعزز أفكاري بأفكار الآخرين.. وتلك العبارة التي قلتها لك توًا مقولة تعني لي الكثير..

- هذا هو الأهم.. أن تعني لك شيئًا..

ربما هو نادم الآن على أنه فتح باب الكلام معي.. حدست ذلك.. ويبدو أننا لن نكون صديقين، حتى لو كان مصيرنا واحدًا.. طالما أن حياتنا لا تزال تشبه الحياة..

وبخلاف ما كنت أهذي به، لم أكن قد تفوهت بأي كلام مفهوم طيلة أشهر.. ولكنني الآن طرف في محادثة غير متوقعة وجدتها، لدهشتي، مرهقة لذهني.. سرعان ما سيصبح نقص اللياقة اللغوية هذا هينًا عندما أبدأ في مرحلة "الحبسة"؛ أي المرحلة الأخيرة من حياتي.. ولو كنت أرغب في القيام بأشياء على نحو مثالي، فقد حان وقت العمل، ويلزمني أن أتحدث بمفردات ضائعة متهشمة.. وسألت نفسي عما إذا كنت مستعدًا لذلك أم لا..

- هل تعرف "بوميل هاربال"؟

سألته وأنا أريد أن أنتهز الفرصة، بينما لا يزال بوسعي التحدث قليلًا..

- ومن أين لي أن أعرفه؟ فأنا مريض ألزهايمر!

- إنه كاتب تشيكي.. كان الرجل في أواخر الثمانينيات بالفعل، عندما بدأت صحته في التدهور، وأدخلوه دار رعاية.. يبدو أن نهايته كانت شاعرية إلى حد ما، حيث هوى من النافذة بينما يطعم الطيور.. ولكن من يعرفونه يقولون إنه تعمَّد القفز من النافذة.. انتحر.. وهي نهاية أشد رمزية في بلده عمَّا هي عليه هنا..

قاطعني قائلًا:

- انتبه، عليك أن تحذر وأنت تتكلم.. تلك الممرضة البدينة التي نراها كل صباح تقترب منا الآن.. ولا شك في أنها قادمة لتهذي بكلام

من قبيل أن الباص سوف يتأخر، وتقترح علينا أن ندخل معها ونتناول بعض القهوة إلى أن يأتي الباص..

- ماذا؟ هل سيتأخر الباص؟ هل تعني أنني لن ألحق بدرس البيانو؟

تقمصت الشخصية من جديد..

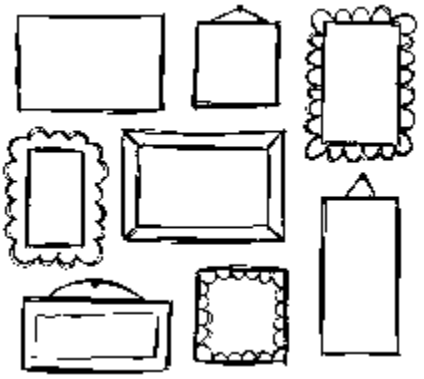

(8)

"عابرًا نهر ستيكس وفي جيبي معجون أسنان".

(نكتة لا أكثر... كان جوزيف روث يهذي بها)..

ذكرى غريبة لقبلة ساخنة لم أحصل عليها أبدًا.

فتات خبز.. كان فيها عزاء أكبر مما قدمه لي أي برليني طيب..

أبيات من قصيدة "العمة المجنونة"..

وشوق إلى تيشيرت مطبوع عليه

"الحياة تبدأ بعد السابعة والأربعين"..

وأمل أكثر منه يقين بأن يكون أحدهم بانتظاري

على الجانب الآخر.

هذا كل شيء..

كانت "مونيك دي بيتر" تجلس وحدها، وهي تكاد تنفجر من شدة الغضب، وعندما لمحتني أتجول بكل ثقة في المطعم خلال إحدى زياراتها التي كانت تقوم بها مجبرة؛ في يدي سيجارة لففتها بنفسي، من التبغ الذي تركه رفيقي الهائم في غرفتي، وفي اليد الأخرى كأس نبيذ؛ أو لنقل إنه كوب نبيذ.. عندها فقط أصبحتُ، في نظرها، تجسيدًا للانحلال العقلي، وحتى لو كانت لا تزال تعتقد أن سلوكي العصبي العجيب لا يمكن إلا أن يكون نتيجة لإفراطي في تعاطي الأدوية، إلا أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الدهشة: أي طبيب أحمق يترك مرضاه يدخنون ويثملون؟ سوف تتقدم بشكوى، شكوى رسمية! سوف تتوجه مباشرة إلى المجلس الطبي! عندئذ لن يكون أمام طاقم العمل في هذا المكان سوى البحث عن العمل في إحدى شركات جمع القمامة!

- زوجي كان مفكرًا طوال حياته.. اعتاد تحدث اللاتينية مع العصافير في حديقتنا الخلفية ليحسن من لغته.. انظروا إليه الآن... وذلك الشيء

القذر في فمه.. إنه يبدو وكأنه متسول من متسولي العالم الرابع..

بالطبع، لم يكن الأمر كما لـو كنـت أسـتطيع فعـل أي شيء حيـال ذلك؛ فأنا "نسيت" بكل بساطة أنني قد أقلعت عن التـدخين.. وهـذا عرَضٌ طبيعي لمرضي، لا أكثر ولا أقل..

وكان رد فعل ابنتي المندهش خلال زيارتها الأخيرة لي - كما عرفت لاحقًا - أمرًا أدفأ قلبي..

- أوه، هل اعتدت التدخين في الماضي؟ لم تخبرني بهذا من قبل! كما أنني عندما كنت أتصفح ألبوم الـصور، لم أرَ لـك أي صـورة وفي يـدك سيجارة..

ثم أشـعلت لنفـسها واحـدة.. لم تكـن بحاجـة حتـى إلى اسـتعارة سيجارة من شخص مـا في المكـان، بـل أخرجـت علبتهـا الخاصـة مـن حقيبتها.. مفاجأة جديدة في قسم المفاجآت.. لأنني لم أكن أعرف مـن قبل أنها تدخن..

- إنه أمل كنت قد يئست منه يا بابا، أن أتمكن في يوم من الأيام من الاستمتاع بسيجارة في وجودك.. حسنًا، ربما ليس في حضورك الكامل الآن... لكن بالقرب منك على الأقل.. ومع ذلك، فقد أبقيت هذه العادة السامة اللذيذة سرًا عنك طوال حياتي، حتى إنني أحيانًا كنت أجد صعوبة في تصديق أنك لم تكتشف بنفسك أنني مدخنة.. كيف لم تعرف أنني كنت أدخن في الجراج عندما كنت مراهقة! استمتعت بالأمر كثيرًا.. والأكثر من ذلك أن تلك السجائر كانت رفيقة مثالية لمراهقة وحيدة بلا هدف.. كنت أمام خيارين؛ إمَّا التدخين أو المخدرات.. أعتقد أنني اتخذت الخيار الصحيح.. صراحة، أنا لم أحاول حتى أن أبقي الأمر سرًا؛ فقد كنت أمضغ حبوب البن حتى لا تفضحني أنفاسي، وهي حيلة ساذجة لم أتصور أن تنطلي على أبوين ذكيين.. وأنا متأكدة من أن ماما كانت لتثور في وجهي عندما تكتشف أن ابنتها الصغيرة التي ربتها جيدًا قد سمحت لنفسها بالانزلاق في

هذا الدرب.. كانت لتشتمني وتلعنني، مثلما فعلت عندما كانت تنقب في سلة الغسيل واكتشفت أنني أرتدي ملابس داخلية سوداء.. ملابس داخلية سوداء.. ومدخنة! هذا مزيج من شأنه أن يصيبها بالجنون.. لا سيما أنها اكتشفت بالفعل أنني ذهبت إلى الطبيب من دون علمها ليكتب لي روشتة طبية لحبوب منع الحمل.. وكان هذا كفيلًا بأن تعتبرني عاهرة المدينة، كان الأمر بمثابة أول مسمار يُدق في نعشها.. ذهبت وهددت الطبيب بكل شيء يمكنك تخيله: يجب أن يشعر بالخجل من نفسه لأنه يشجع الفتيات القاصرات غير المتزوجات على الانحراف.. ومثل هذه النوعية من الاتهامات.. قررت حينذاك تغيير طبيب الأسرة.. أنت بالتأكيد لم تنتبه لكل ذلك.. كنت منشغلًا بالكتب، على الرغم من أنني متأكدة من أنك لن تكون ميالًا لمناقشة أمور حساسة للغاية كهذه مع ابنتك..

.... -

- ربما كنت شجاعًا بما يكفي للدردشة في مثل هذه الأمور مع "هوجو".. رجل لرجل..

- ....

- كما ترى، غادرت المنزل بالفعل، وأصبحت امرأة مستقلة كما تقولون، ومع ذلك ما زلت لا تعرف أنني مدخنة.. أدخن علبة في اليوم، بكل سهولة.. في النهاية، وجدت أنه من الأسهل أن أحاول عدم التدخين في المناسبات القليلة التي كنت أحضر فيها إليكما.. كنت يومها أقلل جرعة النيكوتين مؤقتًا.. لذلك كنت عصبية خلال زيارات الكريسماس وبقية المناسبات العائلية.. وإذا استسلمت أخيرًا لإدماني وخرجت من المنزل للحظات بأي حجة، كنت أجد إثارة كبيرة في العودة للتدخين في الحديقة مرة أخرى.. كما لو كنت أعود إلى السادسة عشرة من عمري.. ولكن هأنذا، أجلس معك، شخصان ناضجان، وقد صرت في الأربعينيات اللعينة.. ها قد اعترفت لك وأنا

أدخن أمامك للمرة الأولى.. ألا تعتقد أن الأمر كله عبث؟

بالفعل، عبث.. ولكن، هل كانت تحدثني أم تحدث نفسها؟

في تلك اللحظة، كانت "روزا روزندال" تتحرك بكرسيها المتحـرك في الكانتين بصحبة ممرضة طيبة كانت تأمـل في تخفيـف اكتئـاب "روزا" ببعض القهوة وقطعة كيك.. تغيير جو، حتى لو كان ذلك عـن طريـق الخروج من الغرفة للذهاب إلى الكانتين، ولكن تلـك الرحلـة القـصيرة تفعل العجائب بأي روح باهتة في هذا المكان.. وعلى أي حال، لماذا لا يزور "روزا" أحد؟ أين زوجها؟ أيكـون قـد مـات؟ وأولادهـا، مـا الـذي يمنعهم عنها؟ أم أنها ليس لديها أولاد؟

قضمت قطعة كيك، وابتسمت، للحظة.. لقد تـذكروا أن يلبـسوها طاقم الأسنان.. أحسنوا صنعًا..

- لم تعد تعرف من أنا؟ أليس كذلك؟

كانت ابنتي تتحدث إليَّ، من جديد..

تنهدت، ودست يدها مرة أخرى في حقيبة يدها الضخمة، وكأنها خزانة أمانات محمولة، وبعد لحظة تفتيش أخرجت ولاعة.. لم أستطع رفض السيجارة التي قدمتها لي.. قالت لي بنبرة تعمدت أن تبدو طبيعية:

- لو أنك تعرف كيف أن لهذا المكان مميزاته في هذه الأيام وهذا العمر.. لا أعرف أي مكان عام آخر في هذا البلد بأكمله، حيث لا يزال بإمكانك التدخين بحرية.. لكن الأمر منطقي.. حاول أن تشرح المخاطر التي تهدد الصحة العامة للتدخين السلبي على شخص مصاب بألزهايمر.. أظن أنك لن تفهم لماذا يجب عليك أن تخرج وتقف في البرد والمطر مثل تلميذ شقي معاقب، لأجل أن تدخن سيجارتك.

كنت لا أزال أحدق في "روزا"، وهي تقضم آخر قطعة كيك..

عندما استجمعت شجاعة تحويل نظري نوعًا ما في اتجاه

"شارلوت"، رأيت الدموع في عينيها.. وبصدمة كان عليَّ أن أتوقعها، أدركت أنها تنظر إليَّ بالطريقة التي تنظر بها إلى شخص للمرة الأخيرة.. لقد أتتني اليوم لتودعني! بعد أن كانت قد ودعتني في قلبها منذ أشهر؛ فلقد راحت ذاتي الحقيقي منذ فترة طويلة على كل حال.. لم تعد تتحمل زيارة شخص لم يعد يعرفها.. ذاب أبوها في غمام ذكرياته.. هذه هي رحلتها الأخيرة إلى هذا البؤس؛ زيارتها الرمزية الأخيرة.. رأيت ذلك.. وشعرت به، ولم أستطع أن أبدي أي اعتراض.. فقد سبقها ابني منذ فترة طويلة..

أكاد أسمع ما قاله في المرة الأخيرة في مخيلتي: "سواءً جلست أمامه أم لم أجلس، فهو لا يعرفني.. أعتقد أن وجودي يحزنه".. ومن الغد، أتخيل "شارلوت" وهي تهدئ ضميرها تجاه هذا الوداع المبكر، ستقول: "رغبت في أن أتذكر بابا على النحو الذي عرفته عليه دومًا.. وليس هذا الشخص الغريب الذي أصبحه"..

لم يزرني أحد من أصحابي لاعبي الكروكيه.. وكذلك الحال مع الجيران أو زملاء المكتبة السابقين.. وأخي؟ أبدًا! ما الذي يدفعه إلى ذلك أصلًا؟ أنا ميت بالفعل.. مثل طفاية فارغة مهملة فوق كومود.. وبعد أن عجزت ابنتي عن الاستمرار في زيارتي، لم يعد هناك سوى "مونيك".. صلتي الأخيرة والوحيدة بالوجود.. ولكنها على وشك أن تنقطع..

تحدثت "شارلوت" إليَّ طوال الوقت، بشكل مستمر تقريبًا.. ليس لأنها كانت تبحث عن نوعٍ من التواصل، ولكن لأنها تقوم بأمر لن تفعله مجددًا.. ولأن لحظات الوداع دائمًا ما تكون الأصعب على أي إنسان..

- أنت لم تترك لنا أي خيار بمرضك هذا.. هل تعلم هذا؟ أنا بشكل خاص، لأن "هوجو" لم يسمح للأمر بالتأثير فيه.. فهو مشغول جدًّا بالعمل وامتحانات أولاده، وأنت تعرفه.. تراجعت ماما عن فكرة البحث عن شقة في البداية، لكنها الآن تقبلت الأمر على كل حال.. سوف تنتقل إليها في السبت الأخير من هذا الشهر.. شقة جميلة، في وسط المدينة،

وحولها كل ما تحتاجه.. ولكنها ترفض الاعتراف بأنها ستضطر إلى التعامل مع مساحة أقل، ولا تزال تتشبث ببعض الكراكيب التي احتفظت بها في الصندرة لسنوات طوال.. فساتين لم تعد تناسبها ولا يمكن أن تناسبها مرة أخرى، ولكنها ستأخذها.. لماذا؟ تقول لي "هل لديكِ أي فكرة عن ثمن هذا الفستان؟" وثلاث كراتين مليئة برسوم لي و"هوجو" من أيام الحضانة، وأوتاد خيام، وورقة من نتيجة، وشيء بشع مصنوع من العاج.. سوف تصطحب كل شيء! كما أنها لن تتوقف عند هذا الحد.. تريدني أن أذهب معها إلى محل أنتيكات لشراء دولاب مخصوص لفوط الشاي.. بينما يجب عليها أن تتخلص من بعض الدواليب اللعينة التي تمتلكها بالفعل، لا أن تأتي بالمزيد منها.. لكنها لا تفهم.. ترفض أن تفهم.. بل غضبت مني.. "أنتِ مثل والدك، لم يكن ليشتري لي أي دولاب"، بينما يراقب "هوجو" كل ذلك وهو يضحك بشدة.. أدركت أنني لا حيلة لي.. أملي في الوقت الحالي يتلخص في أن أجد

أمامي زر تقديم سريع لمجريات حياتي، حتى أضغط عليه.. فلن تكون هذه السنوات ممتعة لأي إنسان، سواءً لي أم لك أم لأي شخص آخر..

فكرت أن هذه هي أنسب لحظة لأطلق ضرطة أخرى..

- هل تعرف أن ماما اختارت بالفعل الموسيقى التي سوف يشغلونها في جنازتك؟ إنها أغنية "إلتون جون"... "أغنية لرجل".. لا أتخيل أنه من الممكن أن تستمتع بالاستماع إلى أغنية كهذه.. إن عدة دقائق من أي أغنية لـ"إلتون جون" كافية بإصابتك بالدوسنتاريا الأميبية، ولكن لا يوجد شيء يمكنني فعله حيال ذلك.. قلت لها: "ماما من فضلك، تلك الأغنية هي في الواقع أغنية للمثليين، لذلك أرى أنها غير مناسبة لجنازة بابا".. لكنها لم تهتم لرأيي.. ولم تهتم باختيار أي مقطوعة من تلك المكتبة الموسيقية التي جمعتها في المنزل طوال حياتك؛ فالحقيقة أن حياة الإنسان لا تهم أحدًا في النهاية.. نسيت "تارتيني".. نسيت "شوبرت".. لم يعد هناك سوى أغنية المثليين تلك.

هذه هي اللحظة المناسبة لأطلق ريحًا سيئة، لكن أمعائي فارغـة.. لم أتمكن من فعلها.

اجتاحت موجة من البهجـة والغبطـة أرجـاء الكـانتين؛ لقـد ظهـر ممثل "كوكيدينت" الشاب الوسيم..

لقد حضر بالفعل، فإذا نظرت إلى الخارج، لرأيـت سـيارته وعليهـا الـشعار: "كوكيـدينت.. ابتـسم للحيـاة!"، تعالـت ثرثـرة وضـحكات الموظفات، وتعمدت الممرضات التحرك بالمرضى في الممرات عـلى أمـل لقاء بأدونيس المبيعات هذا، وكأنه لقاء صدفة..

جلبت ابنتي العزيزة كوب نبيـذ آخـر مـن البـار (لـيس لي، لـسوء الحظ).. كانت تبدو متعبة.. لم تكن تميـل إلى اسـتخدام مستحـضرات التجميل، ولم تتغير تلك العادة فيها..

- أنا و"باسكال" سوف ننفصل..

تمتمت وهي تعود إليَّ، وتجـرع مـن كوبهـا وكأنهـا تـشرب عـصير ليمون..

- أنت أول من أخبره بذلك، وأشعر أنك ستحفظ السر..

لم تفقد خفة دمها على الأقل..

- أعلم أنك كنت مغرمًا جدًّا به.. وهو يبادلك المشاعر نفسها.. يعتبرك مثل والده.. لكن هذا هو حال الحياة.. لم يقع بيننا خلاف فظيع.. على العكس تمامًا.. سيظل هو أفضل شيء حدث لي.. لكن علاقتنا وصلت إلى خط النهاية.. نمت مع شخص لا أستطيع أبدًا أن أحبه بقدر ما أحببت "باسكال".. ولكني لا أشعر بالأسف لنفسي.. إنه أمر يصعب للغاية تفسيره.. ربما لا ينبغي لي أن أحاول ذلك.. لكن من الأفضل أن أفكر مئة مرة قبل أن أخبر ماما بما حدث.. نحن في فوضى عارمة هذه الأيام على أي حال.

انتهت من نبيذها..

تناولت يديَّ في يديها، وضغطت عليهما بلطف..

- بابا... انظر لي ولو لحظات يا بابا!

لم أكن أعرف حقًا كيف أخفي انزعاجي.. كان من الممكن أن يكون الأمر

أسهل لو ركزت عيناي على "روزا روزندال"، ولكنها عادت إلى غرفتها.

- أنت لا تعرف من أنا؟

كانت الدموع تسيل على وجنتيها.. ولكني صحت في جذل:

- "ماتيلدا"! "ماتيلدا"! كنت أعرف أنكِ ستأتين لإنقاذي في النهاية!

اعتدلت في جلستها، ووضعت أمامي علبة سجائر كاملة، ولثمت جبهتي، قبل أن تغادر، من دون أي كلمة أخرى..

وصدق حدسي.. فقد كان الوداع الأخير..

لم تعد "روزا روزندال" تظهر كثيرًا.. ولم تعد تشارك في فرقة الأغاني، مما أثر عليَّ؛ ووجدت صعوبة في المشاركة في هذا النشاط الجماعي.. وكانت غائبة أيضًا عن أمسيات رقص "لورنزو"، حتى إنها لم تعد تغادر غرفتها لتناول الوجبات.. توقفت عن تلوين بيض عيد الفصح، ولم يعد هناك كلب اسمه "بابلو" يجلس في حجرها..

أدركت أن "روزا" لم تعد هنا بعد الآن! ربما ماتت وهي نائمة في قيلولة بعد الظهر، بهدوء، كما يليق بسيدة مثلها.. ربما عثرت عليها "عائشة" عندما ذهبت لتوقظها من أجل جلسة باديكير، أو لتمنحها القهوة والكيك..

لطالما فكرت في الطريقة التي يتدرب بها مقدمو الرعاية على دخول الغرف: هل يكونون مستعدين لاحتمال أن يجدوا أمامهم جثة هامدة في الفراش؟ هل ما زالوا يشعرون بالصدمة؟ أم أنه روتين؟ أم أنهم اعتادوا حضرة الموت، لدرجة أنهم يبادرون بنقل الميت بكل بساطة واعتيادية؟ كدت أسألهم في أحيان كثيرة..

كلا، لم يرَ أحد "روزا" لعدة أيام.. عليَّ ألا أحاول التفكير فيها أو محاولة تخيلها في رأسي.. لا بدَّ أنهم وجدوها ميتة، وهو ما يعني الكثير من الإجراءات التي لا بدَّ وأن يقوموا بها.. يبدأ الأمر بذلك الترولي الغامض الذي يتحرك عبر هذا الجناح من المبنى، وفوقه أشياء مختلفة تمامًا عمَّا اعتاد أن يحمله في كل مرة.. معطر جو، مزيل عرق خاص

بأجساد الموتى، وبقية المنتجات التي أوصى بها الحانوتي..

ما الأشياء الأخرى التي قد توضع فوق الترولي، آخر عربة سوف تصلنا؟ علبة مناديل "سواش" الشهيرة، لتغسيل الجثة دون إتلاف البشرة.. لا تغسل سوى المناطق الحساسة بالماء والصابون قبل أن يوضع الجسد في التابوت، لضمان الرائحة المقبولة خلال مراسم الجنازة.. تُسد فتحات الجسد لمنع أي تسرب كارثي؛ يقوم بذلك أناس محترفون، ويبدو أنهم يستمتعون بما يفعلون إلى حد تبادل النكات الغريبة القذرة..

هناك أيضًا كرتونة فوط تنظيف الكبار من البول؛ على الرغم من أن معظم الناس هنا يموتون وهم يرتدون الحفاضات.. وعلبة فازلين، لترطيب الشفاه الميتة.. وعلبة المكياج، طبعًا، لتجميل قناع الموت الدائم.. ولا ننسى الكريم اللاصق ماركة "كوكيدينت"، فهو وسيلة مبتكرة لتثبيت طاقم الأسنان الصناعية في اللثة.. فلا أعتقد أن هناك

عائلة تتسامح مع كوميديا منظر فم الميت، وقد برز منه طاقم الأسنان خلال الوداع الأخير..

"كوكيدينت".. ابتسم للحياة!

وهناك شيء لم يعد معتادًا، فقد سمعت مؤخرًا رئيسة الممرضات، وهي تشرح لمجموعة من الطلاب الضاحكين كيفية استخدام الغراء لغلق عيني المتوفى.. علاج مضمون ضد الوخز، واستخدامه معتاد في دور رعاية المسنين، ولكنه يفقد تلك النظرة الأخيرة معناها..

وبعد انتهاء كل الخطوات، أخرجوا جثمان "روزا" من المدخل الخلفي.. بكل هدوء، وهذا هو المطلوب..

رحلت قبل أن تُتاح لي فرصة أن أطلب منها أن تراقصني.. قبل أن أتمكن من أن أهمس إليها في تلك اللحظات:

- "روزا".. هناك محطة باص في الخارج.. الباص رقم 77.. الذي يقودنا إلى الماضي.. قاعة الباتروس.. يمكننا أن نستقله معًا..

ومنذ ذلك الحين، لعبت الدور بالطريقة التـي مـن المفـترض بي أن ألعبها: بالتزام كامل.. بالكاد أغـادر مقعـدي.. أقبـع في مكـاني شـاردًا.. نادرًا ما آكل، ولولا أن الممرضات يجبرنني على شرب الماء، لتكونـت في كليتي حصوات هائلـة الحجـم.. أبـكي بـشكل لا إرادي وفي كثـير مـن الأحيان لا أتحدث إلى أي شخص.. أتحـرك بـصعوبة كبـيرة، لدرجـة أن الممرضات صرن يستخدمن كرسـيًّا متحركًـا كلـما شـعرن بالحاجـة إلى نقلي.. صرت أتناول أقراص دواء جديدة ذات ألوان زاهية.. لا يهمنـي ما تفعله.. طالمـا أنهـا ليـست كبـيرة إلى حـد يـصعب بلعهـا.. تحـاول "كـورا" إسـعادي بمحاولـة إغـرائي للخـروج مـن غرفتـي وهـي تحمـل كرتونة من فتات الخبز: تعرف كم استمتع بإطعـام الطيـور والـبط في الحديقة.. وأسمع الأطباء وهم يخبرون زوجتـي بـأن حـالتي تتـدهور

سريعًـا، وأن عليهـا أن تعـد نفـسها لنهايـة وشـيكة... يبـدو أن ذلـك الترولي يقترب مني أكثر وأكثر..

(9)

لم يلحظ المرضى بـالطبع - لا يهـم، فهـم توقفـوا عـن ملاحظـة أي شيء على كل حال - أن موقف سيارات الدار قـد ازدحـم ذات صـباح بشاحنات القنـوات التليفزيونيـة.. وحـاول صـحفيون معروفـون شـق طريقهم إلى الداخل، بينما صوَّب المصورون كاميراتهم، وبذلوا قـصارى جهـدهم لالتقـاط الـصور لمقيمـي الـدار المـذعورين المختبئـين وراء الستائر؛ وسط غضب عارم مـن مـديرة الـدار التـي حاولـت الحفـاظ

على الخصوصية.. كلما غـادر أي موظـف أو موظفـة الـدار أو دخلهـا وجد في وجهه ترسانة من الميكروفونات..

كـان مـن الواضـح أن جميـع العـاملين في الـدار، حتـى سـيدات التنظيف، متوترين للغاية.. الأمور لا تبشر بالخير ويبدو لي أنهم كانوا يبذلون كل محاولاتهم للحفاظ عـلى الـسرية المهنيـة؛ فقـد تـم إلغـاء كورال الذاكرة الغنائي حتى إشعار آخر، مع وقف لعـب البنجـو، فهـم بحاجة للعاملين في مكان آخر، وربما لن يأتي "لـورنزو" لجمـع أغراضـه أيـضًا.. هنـاك عاصـفة إعلاميـة بالخـارج.. وعنـدما تمـر، يمكـن لـدار "وينترلايت" أن تعاود برنامجها القديم المألوف..

تيبست عضلاتي بشكل مزعج منذ أن قررت الجلـوس طـوال آخـر أيام حياتي.. أصـبحت حـرًا مـن الألم.. ألهمتنـي تلـك التطـورات، عـلى الرغم من قراري السابق بعـدم التحـرك كثـيرًا، فـإنني شـعرت برغبـة مفاجئة بالبحث عن مغامرة، واتجهت بسرعة حلـزون بطـيء صـوب

الغرفة 17، غرفة "القائد ألزهايمر"، ودخلتها دون أن أطرق بابها، وأغلقت الباب خلفي.. ولسوء حظي، لم يكن للباب قفل..

كان الرجل قد نهض للتو عن كرسيه المتحرك، ووقف في منتصف الغرفة، وهو يجاهد لارتداء ملابسه (كان قد وضع ساقيه في نفس فتحة البنطلون... مشهد كلاسيكي)..

إن الانشغال المستمر بارتداء الثياب ومن ثم خلعها، قبل معاودة ارتدائها من جديد، حالة مثيرة للشفقة، فصاحبها مثل "سيزيف"، بعد أن تآكل عقله على مر السنين، وصار يظن باستمرار أن عليه الذهاب إلى مكان ما.. ولكن صاحب الغرفة 17 دائمًا ما يعرف بالضبط إلى أين هو ذاهب..

حدق الرجل فيَّ بعينين متسعتين متوترتين، وهو يهرش وجهه، وبدا لي أنه يفكر في الصراخ..

- لا جدوى من الصراخ.. فكلما كان صراخك أعلى، زاد الموقف

تعقيدًا.. كل ما عليك هـو أن تغلـق فمـك القـذر إذا سـمحت، حتـى يكون الأمر أسهل على الكل..

شعرت أنه يفهم معنى كلامي.. فقد سكت، وهو يرتجف..

- اسمع... انظر من النافذة! أترى هؤلاء الإعلاميين الهمج في الخارج؟ خمس قنوات، مزودة بأحدث تكنولوجيا.. لا تبدو الأمـور جيـدة لـك يـا صديقي؛ فقد كشف أحدهم أمرك! ذاع سرك! هنـاك جاسـوس في هـذه الدار وقد فضحك، ولا يسعك القيام بأي شيء! هؤلاء الصحفيون بالخارج هرولوا إلى هنا بعد أن ألقى أحدهم بعظمة إليهم.. وهم يعلمـون أنـك هنا.. وعرفوا أن دار "وينترلايت" للمسنين هي مخبـأك الـصغير! ولـك أن تتخيل الهرج بالخارج.. أتمنى حقًا أن تـتمكن مـن محاولـة تخيُّـل ذلـك؛ فلقد ترك آخر من ظل على قيد الحياة من حرَّاس معسكرات التعـذيب أثنـاء تلـك الحـرب الـشنيعة مكمنـه الفـاخر في بـاراجواي وعـاد إلى أوروبا؛ لأنه أراد أن يموت في أرض أحلامه القديمـة! الجبـان الـذي هـرب

بينما تم إعدام رفاقه؛ فضل الفرار على الموت، على الرغم من أنـه أشرف بنفسه على اقتياد عدد لا أعرفه من الأبرياء إلى حتفهم بأبـشع الطـرق.. والآن هو عجوز ومريض بما يكفي لأن يكون من العبث محاكمته، لذلك قرر العودة.. ولكن، اتـضح أنـك تـدَّعي المـرض وتمثـل دورًا لـيس دورك، واليوم عرف العالم هذه الحقيقة! ما هي إلا دقائق قبل أن يـتم القـبض عليك! هل يمكنك أن تتخيل عناوين الصحف؟

يجوب الآن غرفته في دوائر صغيرة متشابكة.. تزداد أنفاسه سرعة، أدركت أنني أستطيع الاستمرار في الكلام بالحماس نفسه.. بوسـعي أن أستمر بالنبرة نفسها، حتى لو كان ذلك يعني إصابته بنوبة قلبية قبل أن يصل إليه من يتعقبونه..

- أتحاول التهرب من جرائمك ضد الإنسانية؟ ما إن فقدت السلطة والقوة حتى صرت واهنًا ضـعيفًا.. وفجـأة، أصـبحت مريـضًا حتـى لا يفكر أحد في محاكمتك..

قبض على صدره، وهو يسعل..

بالفعل، عليَّ أن أطرق الحديد وهو ساخن..

- يـا لـه مـن يـوم جميـل، أليس كـذلك؟ في الخـارج، في القـرى والبلدات وفي كل مكان، يستعد الناس للاحتفال.. فعمَّا قريـب، وبعـد أن تلفظ آخر أنفاسك، نكون قد طوينا آخر صـفحة في ذكـرى حربـك المجنونة.. لن يتبقى شيئًا منكم أيها الحثالة.. أجل، أعرف أنـك نقلـت عدواك إلى أولادك... الأفكار المتضاربة والمضطربة نفسها حول التفوق الفطري؛ وبالتالي لن ينتهي صراعنا ضد هذا السم أبدًا.. لكـن جيلـك، بما أنك آخر الناجين، كان الأسوأ، وآمل أن يظـل الأسـوأ عـلى الإطـلاق، وأن يكون قد تم القضاء عليه نهائيًّا.. وهو ما سيكفي لرفع معنوياتنا.

ألقيت بجسدي على كرسي قريب مني حتى أراقب نتيجـة كلامـي عليه.. ذلك الخوف الذي رآه واستمتع بـه في أعـين الآلاف، ارتـد إليـه ليمزقه إربًا..

لا أنكر أنني كنت في غاية السعادة والارتياح مـثلما كنـت في تلـك اللحظة..

- أعرف أن عيد ميلادك يحل بعد ثلاثة أيام.. وأنا متأكد مـن أنـك كنت تتطلع إلى الاحتفال به.. سأكون هناك.. لا شك في أنـك تفكـر في ذلك.. والآن أتمهل لأفكر في الأمر؛ أنا بدوري لست حريـصًا حقًـا عـلى مشاركتك الاحتفال بعيد مـيلادي.. مـاذا لـو أغرقتـك في الوعـاء الـذي تتبول فيه؟ هل هذا يناسب فكرتك عن العدالـة؟ أم أن لـديك فكـرة أكثر أصالة من هذه؟ ماذا كنـت تفعـل بالـسجناء الـسياسيين في أيـام عزك؟ لا بدَّ أنك ابتكرت طرق تعذيب مسلية لم تخطر ببـال البـشرية جمعاء، ولن يعرفها أحد، لأن أحدًا لم ينجُ منها لـيحكي عـن أهوالهـا.. أليس لديك اقتراح مـسلٍ حتـى أجربـه الآن؟ مـاذا لـو أننـي دسـست شوكة في مقلة عينك حتى تنزف دمًا، بسرعة وغزارة؟ ثم أجـبرك عـلى أن تأكل مقلة عينك تلك؟

سوف يعاني الانهيار العصبي.. إنها مسألة دقائق فحسب..

ربما كان عليَّ أن أكتفي.. لم تكن هناك أي فائدة للاستمرار في الانتقام من شخص حقير لم يعد قادرًا على الانتصار على أي شيء، حتى ولو كان هذا الشيء هو مجرد قدم لبنطلون.. ليس هذا طبعي، حتى ولو كان في الاستمرار لفترة أطول متعة لا تضاهيها متعة..

لكن كان هناك المزيد.. وهي حقيقة لم يكن من السهل عليَّ أن أعترف بها في البداية.. فبعد فترة وجيزة من وصولي إلى هذه الدار، وعندما اكتشفت هوية هذا المريض شائن السمعة، بدأت أرى في وجوده بوادر خطة خروج محتملة، وسبيل للعودة إلى الحياة الطبيعية ورأسي مرفوع.. ماذا لو لم أستطع تحمل العيش هنا؟ ماذا لو أن الوحدة ومشاعر الشفقة والسجن كانت فوق احتمالي؟ عندئذ سيكون عليَّ فضح حقيقة مجرم الحرب الهارب والرحيل عن دار "وينترلايت" وأنا بطل! وعندئذ سوف يشعر أصدقائي وأولادي بالخجل من كل ما قالوه عني، وسوف يندمون على الزيارات التي لم يقوموا بها أبدًا، ولكنهم

وقبل كـل شيء سـيمدحون مـا قمـت بـه.. وزوجتـي... حـسنًا... أجـل، زوجتي... يا ويلي منها، فلها أنياب... تعض وتلدغ!

عليَّ أن أكتفي بما فعلته اليوم..

- لسوف نلتقي مجددًا..

تركت غرفة "القائد ألزهايمر"... الذي ربما ينسى كل ما جـرى بعـد نصف ساعة فحسب..

(10)

أنا متأكد من أن "مونيك" ظلت تعاني من فوبيا التليفون لبضعة أسابيع الآن.. لا بدَّ أنها شعرت بالموت مع كل جرس يرن.. الأخبار السيئة لا تحترم المكان أو الزمان؛ ولهذا السبب كانت تنام وتليفونها المحمول قريب منها.. فربما تكون هذه هي لعبتي الأخيرة؛ أن أموت ليلًا.. ولكنني طالما كنت أشك في أن القائمين على هذه الدار يغفلون عمن يموتون ليلًا.. فلا يتجلى الموت أمامهم إلا خلال الجولة الصباحية..

وطالما أنهم عاجزون عن تبين حقيقة أن المريض مصدر إزعاج لهم إلى حد أنه يقرر دائمًا أن يموت في ورديـة الليـل، فسوف ينتظرون إلى أن تنتهي دورة اليوم كاملة قبل القيام بما ينبغي عليهم القيام به..

في كل مرة يرن فيها جرس التليفون، تخشى "مونيك" أن يكون ذلك هو إعلان الموت.. وفي بعض الأحيان، تعيقها هواجسها عن الوصول إلى التليفون في الوقت المناسب.. وعندئذ يلتهمها الشك: هل يقومون بإبلاغ أقرب الأقرباء، وإذا لم يرد أحدهم على التليفون، يتركون رسالة صوتية على جهاز الرد الآلي، أم أن هذا غير لائق؟ ترتاح للرأي الآخر، ولا تستمع إلى رسائل الرد الآلي، وكأنها بذلك تقنع نفسها بأن الخبر لا يصبح حقيقة إلا إذا عرفته..

لكن، لا مفر؛ فهي مسألة وقت قبل أن ترد على التليفون، وقبل أن تأسف لأنها لا تسمع ذلك الصوت الحذر لمن يحاول تسويق منتج عبر التليفون.. وكذلك لن يكون صوتًا آليًّا لموظف في مؤسسة استطلاع

رأي، أو حتى صوتًا بليدًا لشخص يصر على طلب الرقم الخطأ نفسه مرتين.. بدلًا من كل ذلك، أتاها صوت مديرة الدار الدافئ:

- سيدة "دي بيتر"، أخشى أن عليَّ أن أنقل إليكِ الخبر الذي كنتِ تتوقعينه منذ فترة.

- هل كان موته هادئًا؟ هل مات في نومه؟

تلك هي الأسئلة التي يسألها الناس عمومًا.. لأننا حريصون على أن نؤمن بأن من مات من أحبابنا لم يعرف حتى أنه مات، وأنه كان سعيد الحظ فلفظ آخر أنفاسه أثناء أحلامه.. مات، وهو يظن أنه سيوف يستيقظ بعد ساعات، ليفرغ مثانته ويأكل قطعة التوست وهو يقرأ جريدة الصباح.. اعتقاد مريح وجميل..

لكن موتي لن يكون سهلًا.. كلا، لن أموت وأنا نائم..

أحب أن أتخيل المشهد: "مونيك" في مطبخها، مرتدية المريلة الوردية.. وقد أبلغوها للتو أنها قد صارت أرملة بعد أن سقط زوجها

من نافذة الدار أثناء إطعام الطيور.. كانت ميتة سريعة؛ فهكـذا حـال السقوط دومًا، وهم يدركون أنه لم يعانِ أثناء رحيله الأخير..

تلك هي الميتة... تلك هي الميتة..

أتخيل رفاقي القدامى.. يلعبـون الكروكيـه، ويتجـادلون حـول الكـرات والفائزين.. عندئذ، يتذكر "رولاند" أن لديه خبرًا لا بدَّ أن يبلغه للجميع:

- عندي خبر لكم..

لحظتها، نال اهتمام الجميع بالفعل..

- سـيكون علـيكم إخـراج معـاطفكم الـسوداء، لحـضور جنـازة جديدة.. لن تصدقوا من هو صاحبها هذه المرة.. إنه "ديزيريه"!

- "ديزيريه"؟!.. مهلًا، أي "ديزيريه" تقصد؟

- وهل هناك غيره؟ إنـه "ديزيريـه كورديـه".. لا تقولـوا لي إنكـم نسيتموه.. بعد رفقة كل تلك السنين..

الكل يعرف بالطبع من هو "ديزيريه".. الرجل الذي... كان محترمًا.. أمين المكتبة، المغرم بالكتب.. والمغرم بالموسيقى أيضًا؛ والقادر على الدندنة بمقطوعة عيد الميلاد لبيتهوفن.. أو التفرقة بينها وبين الرباعيات الوترية "شوبرت".. على الرغم من أنه لم يبرع أبدًا في لعب الكروكيه.. والذي كان طوع زوجته.. أصابه الخرف، وأوقع نفسه في أكثر من ورطة كوميدية.. ولم يكن أمامهم من خيار سوى إيداعه دار رعاية.. في "وينترلايت" على ما نظن.. حيث كانوا يصورون ذلك المسلسل مؤخرًا... ماذا كان اسم المسلسل؟ بالتأكيد كان اسمه "وينترلايت" أيضًا، ولكن منذ متى و"ديزيريه" هناك؟ للأمانة، كان بعضهم يظن أن الرجل قد مات بالفعل.. لذلك كانت الدهشة من أنه كان على قيد الحياة كل هذا الوقت.. شعروا بالخجل والحرج.. الحرج الشديد..

- بالكاد أتم عامه الرابع والسبعين.. لا يزال الرجل في عز شبابه..

- الرابع والسبعون؟ المسكين.. مات صغيرًا..

أمَّن الكل على هذا التعليق.. من العبث أن يموت في الرابعة والسبعين... في عصرنا هذا على الأقل.. ومع كل الرعاية الطبية المتاحة والفيتامينات والأدوية، وغيرها.. راودتهم لحظتها آلام الظهر، بعد أن أمضوا الساعات في لعب الكروكيه..

- سمعت أن موته لم يكن سهلًا.. لقد سقط من نافذة..

- حقًا؟

- كان قد امتنع عن تناول الطعام قبلها بأيام.. كان يدخر الساندويتشات ليطعم بها الطيور في حديقة الدار.. ولأن المشي لكل هذه المسافة أتعبه، صار يلقي لها بالفتات من النافذة.. ويبدو أنه...

- هذا مروع.. هل مات فور سقوطه؟ أتمنى أنها كانت ميتة سريعة على الأقل..

- مـا زاد مـن مأسـاوية موتـه هـو أنـه قبلهـا بـساعات عـبر نهـر "ستيكس" وهو يحمل كرتونة بها فتات الخبـز، وبعـد أن كتـب بـضع كلمات على مرآة الحمام بمعجـون الأسـنان.. كانـت كلـمات غامـضة.. شجرة.. جزرة.. مصباح.. هل يمكنكم الربط بينهـا؟ كأنـه يكتـب عـلى سبورة الفصل.. المسكين..

- ألزهايمر مرض صعب..

بالفعل.. ألزهايمر مرض صعب.. اكتفوا بهذا القدر من الأسى، وعـادوا لاستئناف المباراة.. أحدهم سيفوز بها.. وأحدهم سوف يتوعـد بالثـأر في المباراة المقبلة.. وسوف يحل الليل، ويودعون بعضهم البعض، على وعـد بلقاء قريب.. في نهار المعـاطف الـسوداء، ليجلـسوا سـويًّا فـوق مقاعـد الكنيـسة البـاردة.. وعنـدما يقفـون معًـا في صـمت داخـل المـدافن، سوف يفكـر كـل واحـد فـيهم في أن المـوت صـار أقـرب إليـه، ولـسوف

يرمقون جثماني، وهو يستقر شيئًا فشيئًا في بـاطن الأرض، إلى جـوار قـبر "روزا روزندال"... في قلب ما يسمونها "الأرض الرحيمة".

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
2.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
5.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
6.	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
7.	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
8.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
9.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
10.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
11.	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
12.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
13.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
14.	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
15.	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
16.	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
17.	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
18.	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
19.	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
20.	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
21.	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
22.	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
23.	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
24.	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
25.	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
26.	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
27.	توباز	هاكان جنيد	تركيا
28.	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
29.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا

30.	جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
31.	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
32.	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
33.	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
34.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
35.	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
36.	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
37.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
38.	جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
39.	معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
40.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
41.	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
42.	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
43.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
44.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
45.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
46.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
47.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
48.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
49.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
50.	الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
51.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
52.	كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
53.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
54.	بنات الصين	يي مِاي	الصين
55.	الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
56.	رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
57.	سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
58.	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
59.	رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
60.	المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
61.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا

62. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
63. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
64. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
65. القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
66. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
67. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
68. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
69. دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
70. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
71. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
72. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
73. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
74. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

صدر من كتب عامَّة:

75. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
76. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
77. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
78. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
79. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
80. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
81. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
82. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
83. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
84. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
85. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
86. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
87. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
88. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
89. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
90. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
91. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
92. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
93. الجري	ثور جوتاس	النرويج
94. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
95. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

96. بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
97. في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	أسبانيا
98. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
99. الحب في الأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
100. بيت في سامراء	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
101. أيام رائعة	رافاييل مونتيز	البرازيل
102. خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
103. سهر	صلاح الدين ديميرتاس	تركيا
104. بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
105. شمس سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
106. يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
107. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
108. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
109. صلوات ليلية	سانتيجو جامبوا	كولومبيا
110. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
111. قصص خيالية	ألكسندر بروبوكيف	مقدونيا
112. مغامرات دكتور مينجوس	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
113. أسميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
114. فرق التوقيت	ألموت تينا شميت	النمسا
115. الحرية الحزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا

كتب_مختلفة # بلجيكا

"أفضل الأفكار في العالم هي تلك التي تنضج على مهل، تمامًا مثل قطعة جبن قديمة معتقة. وهكذا، كنت أبني خطتي هذه خطوة خطوة، وأحيانًا ما تكون إحدى هذه الخطوات عفوية من تلقاء نفسها. ليس بوسعي أن أحدد لك على وجه اليقين متى وأين واتتني هذه الفكرة، ولكن لو أنك مصر على أن أحدد لحظة بعينها، فسوف أخبرك أنها كانت ذات ظهيرة.. متى بالضبط؟ منذ عامين، أو عامين ونصف، في نادي الكروكيه".

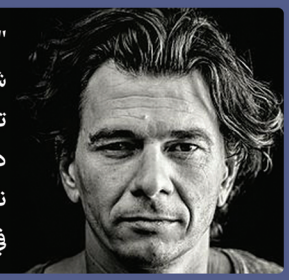

"عندما أموت، افعلوا بي ما تريدون؛ أحرقوني، ألقوني في الطريق، أي شيء طالما أنني لن أُدفن بجوار زوجتي".

تدور أحداث تلك الرواية كلها من وجهة نظر الراوي فنحن لا نعرف دوافعه، ولا اتجاهاته. ما نعرفه هو ما يقوله... ويجب أن نثق فيه... نكتشف أن عنده خطة ما.. ما هي، ولماذا، و كيف ستكون نهايتها؟ في النهاية، ستتركك الرواية بشعور غريب وخوف معين له أسبابه.

ديميتري فيرهولست

ولد في ٢ أكتوبر ١٩٧٢ في "ألست" ببلجيكا وهو كاتب وشاعر بلجيكي. له الكثير من الأعمال الشهيرة من ضمنها:"بروبليمسكي هوتيل"، والتي ترجمناها تحت عنوان "فندق الغرباء"، ورواية "البؤساء".

اشتُهر عام ١٩٩٩ بمجموعته القصصية الأولى "الغرفة المجاورة". والتي أتبعها برواية "لا شيء، لا أحد، وهدوء معقول" عام ٢٠٠١، ثم روايته "ملل حارس المرمى" عام ٢٠٠٢.

أمَّا روايتيه "فندق الغرباء" (٢٠٠٣)، و"نهاية الأشياء" (٢٠٠٦) فقد نجحتا نجاحًا كبيرًا للغاية وتُرجِمَتَا إلى العديد من اللغات. حصل على جائزة "دي. إن. كتاب"، وهي جائزة هولندية أدبية للشباب عام ٢٠٠٨، و"جائزة جولدن أَوُّل ريدرز" عام ٢٠٠٧.

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-435-2
9 789773 194352 >
WWW.alarabipublishing.com.eg

بلجيكا
الزهايمر
كوميديا قتل عجوز سخرية

تصميم الغلاف
Khalid El Sherif
Unlock Your Imagintaion...